الباب الخامس

الأسماء والأحكام

obeikandl.com

obeikandl.com

حقيقة الإيمان

(فى مسند الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن عباس قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا له، فأتاه جبريل عليه السلام فجلس بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واضعا كفيه على ركبتى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال: يا رسول الله حدثنى ما الإسلام؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تسلم وجهك لله، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله .

قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟

قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت

قال: يا رسول الله فحدثنى ما الإيمان

قال: الإيمان أن تؤمن بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، وتؤمن بالموت، وبالحياة بعد الموت، وتؤمن بالجنة والنار، والحساب، والميزان، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره .

قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟

قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت.

قال: يا رسول الله حدثنى ما الإحسان؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإنك إن لم تره فإنه يراك .

قال: يا رسول الله فحدثنى متى الساعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، فى خمس من الغيب لا يعلمهن إلا هو: [إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير] ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك .

قال: أجل يا رسول الله فحدثنى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو ربها - ورأيت أصحاب الشاء تطاولوا بالبنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراطها

قال يا رسول الله: ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة

قال: العرب

وفى صحيح البخارى مثله بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه غير أنه قدم السؤال عن الإيمان، ولم يحدد من الحفاة العراة .

لقد كانت كلماته صلى الله عليه وسلم كما جاءت فى الحديث: أولا: عن الإسلام أن تسلم وجهك لله، ثم عن أعمال الجوارح الناتجة عن إسلام الوجه، ثم عما يقتضيه ذلك من عقد القلب على مفردات الإيمان، ثم إحسان العمل فى ذلك كله

وكانت كلماته حول الموضوع فى ممارسته للدعوة متنوعة بتنوع السائلين وظروفهم النفسية

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال: " قل آمنت بالله ثم استقم" أخرجه مسلم فى باب جامع أوصاف الإسلام من كتاب الإيمان، وأخرجه النسائى والترمذى وقال حسن صحيح .

ومن أمثلة هذا التنوع قوله صلى الله عليه وسلم " ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف به فى النار " أخرجه الخمسة

وقوله: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس إلى دمائهم " أخرجه الترمذى والنسائى .

وقوله لرجل سأله " أى الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام،وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " أخرجه الشيخان والنسائى

ومن ذلك أيضا قوله: " إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان فإن الله تعالى يقول " إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر " أخرجه الترمذى فى باب ما جاء فى حرمة الصلاة من أبواب الإيمان، وهو حديث مختلف فى صحته قال الترمذى: غريب حسن، وقال الحاكم فى مستدركه: صحيح، وضعفه الذهبى.

ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من فعلهم فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وعلم أن لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة، و لا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم فإن الله تعالى لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره " أخرجه أبو داود فى باب زكاة السائمة منقطعا، ورواه البغوى والطبرانى مسندا.

المدخل إلى الإيمان

إن منهج الرسول صلى الله عليه وسلم فى التوجيه إلى الإيمان وتربيته لم يكن منهج اللغويين أو المناطقة، ومهما قيل من ابتدائه مع المدعوين بالشهادتين اللتين تشملان حقائق الدين جميعا فإنه يظل من المؤكد أنها مقبولة من المبتدئين وهم على غير وعى كامل بهذه المضامين جميعا ..

وفيما يتعلق بوضع تعريف للإيمان نجد علماء الكلام يبذلون جهدا كبيرا من أجل صياغة تعريف منطقى (جامع مانع) للإيمان والإسلام وقد فاتهم ـ فيما أرى ـ

أنهم يعالجون حركة نفسية، ودعوة متنامية، وضع الرسول صلى الله عليه وسلم حدها الأدنى ثم أخذ بيدها فى طريق صاعد وفق منهج نفسى تتمازج فيه عناصر الإيمان تمازجا عضويا وتتصاعد ولا تجمد فى حركة الصعود حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فى حركة الحياة نفسها .

يقول العلامة فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى شرحه لهذا الحديث مؤكدا ما نذهب إليه من المنهج النفسى: (إن ذوق الإيمان كلمة تقال بالتشكيك [1] على مراتب، وإن أصل الإيمان يتوقف على "مبدأ " هذا الوجدان، وكماله – أى كمال الإيمان – يتوقف على كماله – أى كمال هذا الذوق – والذى يليق بهذا الموضع – أى الذى جاء وصفه فى الحديث السالف – أن يكون من النوع الثانى لا الأول، فالمعنى أن من أدى هذه الواجبات على وجهها برهن على قوة وجدانه لحلاوة الإيمان، وأن بشاشته قد خالطت قلبه، ومن قصر فيها دل على نقص إيمانه وضعف إحساسه الدينى) .

ثم يقول: (فيجب حينئذ الأخذ بمنطوقها وتعطيل مفهومها) ومفهومها يعنى: أن من فرط فى هذه الأمور أو بعضها خرج من الإيمان، ولو رضى بالله ربا، وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، لأن ذلك خلاف ما دلت عليه الأدلة القاطعة، يقول الدكتور دراز: (لأن دلالة المفهوم عند القائلين بها ظنية لا قطعية، فإن أيدتها الأدلة الصريحة عملنا بها جميعا، وإن عارضتها لم نعمل بها إجماعا، وإن سكت عنها كان هذا محل اجتهاد المجتهدين فى الأحكام الظنية بين آخذ بها وغير آخذ)[2]

---

(١) القول بالتشكيك أحد أقسام خمسة لنسبة اللفظ إلى مسماه: هى التواطؤ والتباين والاشتراك والترادف والتشكيك، والتشكيك هو فيما كان مترددا بين التواطؤ والاشتراك لاختلاف أفراده بالأولوية وعدمها أو بالشدة والضعف كالبياض فى الثلج والعاج، قال القطب: سمى مشككا لأن أفراده مشتركة فى أصل معناه ومختلفة بأحد الوجوه الثلاثة المذكورة، فالناظر إليه إن نظر إلى جهة الاشتراك خيل إليه أنه متواطئ لتوافق أفراده فيه، وإن نظر إلى جهة الاختلاف أوهمه أنه مشترك كأنه لفظ له معان مختلفة كالعين فالناظر فيه يتشكك هل هو متواطئ أو مشترك . أنظر لقطة العجلان للإمام الزركشى .

(٢) أنظر كتابه (المختار من كنوز السنة) ص ٣٠٩- ٣١٠

أقول: وما ذاك إلا لأن المنهج النفسى هو المقياس لفهم حركة الدخول إلى الإسلام والترقى فيه.

هذا فيما يتعلق بتعريف الإيمان وموقع علماء الكلام من منهج الرسول فيه .

أما فيما يتعلق **بتحديد نقطة البداية** التى يستحق بها المؤمن وصف الإيمان لينطلق منها بعد ذلك إلى كمالاته فقد وجدنا علماء الكلام قد رجعوا فيها إلى مفهومهم عن " العلم " و " التصديق " و" البرهان " "واليقين " ورجعوا إلى اغترارهم بجدوى المجالات النظرية وأنها تؤدى إلى شئ، وقد غاب عنهم ما تعرض له العقل النظرى من ضربات قاصمة فى الفلسفة النقدية قديماً وحديثاً، جعلت منه " وعاء " "قلقا " لما يصب فيه من "الإيمان" .

أما المنهج الذى انتهجه الرسول ﷺ فلم يتورط فى شئ من ذلك - لأنه منهج علام الغيوب اللطيف الخبير الذى أحاط بكل شئ علماً – وكانت بداية منهج الرسول من الإسلام قائمة على " العقل العملى " فى بساطته وشموله ومخاطبته " للإنسان " مهما يكن هذا الإنسان فى بداوته أو حضارته، فى جهالته، أو ثقافته، فى غباوته أو ذكائه، أو عبقريته .

لم يكن المدخل إلى الإيمان كما وضعه الرسول ﷺ إلا موقفا عملياً لفت فيه الرسول نظر " الإنسان " إلى مقره فيه مهما يكن موقعه فى المكان أو موقعه فى التاريخ، فإذا هو – أى الإنسان – مطالب عملياً بـ " التصرف " وهو – أى الإنسان – ما بين " لفت النظر " و" التصرف " يضيق به المقام عن إجراء البحوث الكلامية، فضلاً عن كونه لا يحتاج إليها لكى يكون مسلماً . **إنه الإنذار كما تحدثنا عنه فى المدخل العملى** .

وإذن فقد تبين لنا يسر المدخل إلى الإسلام – فى منهج الرسول ﷺ كما تبين يسر المسار فيه مدخل عملى ملزم للإنسان أيا كان، يجد تطبيقه فى مواجهة ما بعد الموت، والإنذار بالنار ... وهو هنا يلجأ إلى الله، كموئل وحيد للنجاة من حادثة النار، فيسلم نفسه إلى الله، وهو إذ يسلم نفسه لله، لا ينحرف إلى استقلال فى المعرفة، ولا

ينحرف إلى استقلال فى الهدى، فالمعرفة كالخلق، كالرزق: عطاء من الله للإنسان أيا كان، والهدى كالكرامة: عطاء من الله للإنسان الذى يطلبها من الله بشروطها .

وهو بعد منهج متكامل، يأتى من صانع الإنسان، ليسرى من مداخل الإنسان، ليستقر فى جوانب الإنسان: الإرادية، والوجدانية، والعقلية ...

وهو منهج لا يستغنى فى بدايته، أو وسائطه، أو ذراه لا يستغنى عن " إنسان " يوصله إلى " الإنسان " ومن هنا كانت مكانة الرسول ﷺ كضرورة لا غنى عنها فى البدايات والوسائط والذرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ ١٥١ البقرة .

فهذا يوضح المكانة الأساسية التى يحتلها الرسول فى تحصيل الإيمان والمعرفة باعتبارها طريقاً لتوصيل المعارف الإلهية إلى الناس، بعد أن ثبت عجز العقل المستقل عن تحصيل اليقين فيها أو فى غيرها .

إن بعض المتكلمين بعد أن تحدثوا عن الحكمة النظرية والعملية، وأنها كمال فى القوة النظرية والقوة العملية، أدركوا أن ذلك لا يتم إلا " بقدر القوة البشرية " ومن ثم تظهر الحاجة إلى الاقتداء بالرسول للحصول على هاتين الحكمتين .

مصطلح الأسماء والأحكام

المراد بالأسماء والأحكام: معرفة تسمية كل من: الإسلام والإيمان، والكفر والنفاق والعصيان، ومعرفة حكم كل من المسلم والمؤمن والكافر والمناطق والعاصى من حيث قبوله ورده، ومن حيث استحقاقه الجزاء أو الثواب فى الآخرة، على سبيل الخلود أو غيره .

وأول ورود هذا الاصطلاح جاء فى مروج الذهب للمسعودى حيث استُعمل اسما لباب ذكر أنه يحتوى على الكلام عن الأصل الرابع عند المعتزلة وهو القول بالمنزلة بين المنزلين ..

وورد عن أبى الحسن الأشعرى فى كتابين له أحدهما: كتاب " اختلاف الناس فى الأسماء والأحكام والخاص والعام "، وثانيهما: كتاب (مسائل سئل عنها الجبائى فى الأسماء والأحكام) ثم ورد وانتشر فى كتب علم الكلام ..

فهو بهذا اللفظ فى " المواقف " للإيجى (المرصد الثالث من الموقف السادس)، وفى " شرح مطالع الأنظار للأصفهانى على متن طوالع الأنوار للبيضاوى "...وفى "محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين " للرازى، وفى كتاب " إيثار الحق " لابن المرتضى .

ولقد كانت هناك أسباب اجتماعية أدت إلى زيادة الاهتمام بدراسة الموضوع:

من ذلك أن الانتماء للعقيدة كان وما يزال هو أساس الانتماء للمجتمع فى الإسلام، وأن العقيدة الإسلامية من شأنها أن تترتب عليها مسئوليات متعددة فى مختلف جوانب الحياة، ومن هنا ظهرت مشكلة الإيمان والعمل .

وأن المجتمع الإسلامى انتقل إلى العيش فى ظل دولة ترعاه حيث ظهرت مشكلة ادعاء الانتماء لهذا المجتمع للاستفادة برعاية هذه الدولة، ومن هنا ظهرت مشكلة الإيمان والنفاق .

من أجل ذلك استثيرت أسباب أخرى يمكن أن نُسميها الأسباب النصية، التى ترجع إلى الكتاب والسنة حيث جرى التناول للنصوص التى تعلقت بهذا الموضوع تناولاً حرفياً أو منطقياً أو فلسفياً .. دون تناولها من ناحية طبيعة النفس البشرية وطريقة دخولها فى الإيمان وتغلغلها فيه أو .. تباعدها عنه ..

وتصفح الآيات والأحاديث الخاصة بهذا الموضوع فى ظل التناول الحرفى أو المنطقى .. يوضح لنا كيف ساهم هذا التناول فى تعقيد المشكلة .

وهذا ما سوف نتبينه من دراستنا لاختلاف الآراء والمذاهب حول حقيقة الإيمان، وعلاقته بالإسلام، وعلاقته بالعمل ... إلى آخر المباحث التى تتفرع حول هذه القضايا ..

حقيقة الإيمان بين المذاهب المختلفة

تشعبت المذاهب فى حقيقة الإيمان تشعباً واسعاً، وكان أحد الأسباب ما نجده من نظرتهم إلى النصوص نظرة حرفية أو لغوية أو نفسية، أو منطقية، أو نظرتهم إليها من خلال ما يذهبون إليه أولاً من عقيدة فلسفية ثم يجتزئون بعد ذلك نصاً يفهمونه على أساس فلسفتهم ثم يتجاهلون النصوص الصريحة إذا عارضتهم، أو يؤولونها إذا قدروا على ذلك .

ولقد تعددت هذه المذاهب ما بين قائل ببساطة الإيمان، وأنه إقرار محض، أو معرفة محضة .، وقائل بأنه مركب ومن بين ما قيل: إنه مركب من المعرفة والإقرار والعمل .

الإيمان إقرار محض

ذهبت الكرامية إلى أن الإيمان هو: إقرار الخلائق فى عالم الذر، إذ سألهم الله تعالى: ألست بربكم؟ قالوا: بلى .

وزعموا أن ذلك القول باق فى كل من قاله مع سكوته وخرسه إلى يوم القيامة لا يبطل عنه إلا بالردة، فإذا ارتد ثم أقر ثانياً عاد إقراره الأول بعد الردة إيماناً، وزعموا أن الإيمان إقرار فرد، فتكرير الإيمان عندهم ليس إيماناً .

الإيمان معرفة محضة

وذهبت بعض الفرق إلى أن الإيمان معرفة محضة بالله ورسله وبجميع ما جاء من عند الله، بهذا قال الجهمية، فعندهم أن من أتى بهذه المعرفة ثم جحد بلسانه لم يكفر بجحده لأن العلم والمعرفة لا يزولان بالجحد، فهو مؤمن، ولأن الإيمان والكفر لا يكونان إلا فى القلب دون غيره من الجوارح .

والعمل الإيمان مركب من المعرفة والإقرار

ممن ذهب إلى أن الإيمان مركب من المعرفة والإقرار والعمل الخوارج عموما .

وعند الإباضية أن كل كبيرة كفر .. كفر نعمة لا كفر ملة .

وعند الزيدية من الشيعة أن الإيمان مركب من المعرفة والإقرار واجتناب ما جاء فيه الوعيد (الكبيرة)، أما مواقعة ما جاء فيه الوعيد فهو كفر، كفر نعمة .

وعند الإمامية: أنه هو المعرفة والإقرار بالله وبرسوله وبالإمام وبما جاء من عند الله والرسول والإمام .

والمعتزلة ذهب بعضهم إلى أن: الإيمان هو **فعل** الواجبات دون النوافل، قال بذلك أبو على وأبو هاشم . وذهب النظام إلى أنه اجتناب كل ما جاء فيه الوعيد

وذهب أبو الهذيل منهم إلى أنه فعل كل الطاعات سواء كانت واجبة أو مندوبة من الأقوال أو الأفعال أو الاعتقادات . ولذلك فمنه ما تركه كفر، ومنه ما تركه فسق، ومنه ما تركه صغيرة ومنه.

وتستدل بعض المذاهب على أن الإيمان لا يكون بغير العمل، بما يذهبون إليه من معنى قوله تعالى: ﴿ **وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ** ﴾ ٥ سورة البينة . ويقررون أن ما تقدم يدل على أن الأعمال من الدين . ولما كان الدين هو الإسلام كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ** ﴾. وأن الإسلام هو وحده الدين المقبول عند الله وفقا لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ** ﴾ فهذا يعنى أن الإيمان لن يكون فى نطاق المقبول ما لم يكن من الدين ومنه العمل: أى الدين المقبول وهو الإسلام.

ويستدلون أيضاً بما يستنتجونه من أن قاطعى الطريق يدخلون جهنم .. على النحو التالى يقول تعالى عن قاطعى الطريق: ﴿ **ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ ٣٣. سورة المائدة .

ثم يقولون: كل من يدخل جهنم يخزى لقوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ** ﴾ ١٩٢ . سورة آل عمران ...

ثم يقولون: من يخزى يوم القيمة ليس مؤمناً لقوله تعالى: ﴿ **يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ** ﴾ ٨ سورة التحريم ..

وهذا يعنى أن قاطع الطريق – وهو من المخزيين - ليس مؤمناً لعدم دخوله ضمن قوله تعالى فى هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾، وهذا يعنى أن العمل من الإيمان .

حقيقة الإيمان عند أهل السنة عموما

علاقة العمل والإقرار بالإيمان:

كان الحسن البصرى فيما يروى عنه يذهب إلى أن الإيمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا كان يحمل صاحبه على العمل، وروى عنه (ليس الإيمان بالتمنى ولكنه ما وقر بالقلب وصدقه العمل) .

وروى عن الإمام الشافعى ﷺ قوله (الإيمان قول وعمل ..) ومع ذلك فقد ذهب إلى أن الإيمان يبقى مع فوات العمل، وفى هذا يرى المعتزلة تناقضاً، ويوجه الإمام الرازى كلام الشافعى رضى الله عنه بأن له أن يجيب بأن العمل داخل كثمرة من ثمرات الإيمان لا كأصل له ..

وروى عن مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى واسحق بن راهويه وأهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان .

وذكر الإمام الطحاوى أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان .

وذهب الإمام الماتريدى إلى أن معنى الإيمان هو التصديق بالقلب، وأن الإقرار باللسان (ركن زائد ليس بأصلى) [1].أما المعرفة والعلم والعمل والإقرار باللسان فليس جزءا من الإيمان ولا شرطا له، ويجعل الإيمان شرطا للعمل .

ولم يقبل بترك العمل كشأن بعض المرجئة، وهو يقول فى تفسيره لمعنى العبادة: إنها جعل العبد كليته لله قولا وعملا وعقدا .

((١ أنظر شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٣٦ وص ٢٤٢

والإيمان – بمعنى التصديق على الأصل – لا يزيد ولا ينقص، وقد يزيد وينقص باعتبارات أخرى: كالزيادة باعتبار الحجج والبراهين، والتفاصيل، والقوة، والثمار، والخوف من الله .

ويرى أن الإيمان والإسلام بمعنى واحد .[1]

ويسند إلى أصحاب الحديث أنهم يذهبون إلى أن الإيمان هو جميع الطاعات فرضها ونفلها . ولكنهم يجعلون الطاعات على ثلاثة أقسام:

قسم يخرج صاحبه به عن الكفر ويتخلص من الخلود في النار إن مات عليه: وهو معرفته بالله وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره .. واعتقاد سائر ما تواترت الأخبار الشرعية به

وقسم يوجب العدالة وزوال اسم الفسق عن صاحبه ويتخلص به من دخول النار، وهو أداء الفرائض واجتناب الكبائر .

وقسم منه يوجب كون صاحبه من السابقين الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهو أداء الفرائض والنوافل مع اجتناب الذنوب كلها[2]

ولهم سندهم من الكتاب والسنة من ذلك قوله ﷺ: (الإيمان بضع وستون شعبة – أو بضع وسبعون شعبه – فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبه من الإيمان) . أخرجه الخمسة واللفظ لمسلم، والبخارى رحمه الله إنما رواه " بضع وستون " من غير شك[3].

ينقل فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز عن الحافظ بن حبان – ت ٣٥٤ هـ – فى صحيحه قوله (جعلت أعد الطاعات فإذا هى تزيد عن ذلك شيئا كثيراً . فرجعت إلى السنن فعددت كل طاعة عدها رسول ﷺ من الإيمان فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين .

---

(١) المغربى ص ٣٨٢- ٣٨٧، و٤٠٣ نقلا عن تأويلات أهل السنة ج ١ ص ١١، ١٧، ٦٣، ٣٠٦

(٢) أنظر أصول الدين للبغدادى ص ٢٤٩ طبعة استانبول ١٩٢٨

(٣) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٤٥

فرجعت إلى ما بين الدفتين من كلام ربنا جل وعلا فتلوته آية آية بالتدبر، وعددت كل طاعة عدها الله من الإيمان فإذا هى [1] عن البضع والسبعين .

فضممت الكتاب إلى السنن وأسقطت المعاد منها فإذا كل شئ عده الله جل وعلا فى كتابه من الإيمان، وكل طاعة جعلها رسول ﷺ من الإيمان فى سننه تسع وسبعون شعبه لا يزيد عليها ولا ينقص منها شئ .

وقد ذكرت هذه المسائل بكمالها شعبة شعبة فى كتاب " وصف الإيمان وشعبه " أرجو أن يكون فيه الغنية للناظر، فأغنى ذلك عن تكرارها فى هذا الكتاب) .

ويعلق فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز على ذلك قائلاً: لو أننا ظفرنا ببيان ابن حبان لأعيان هذه الشعب لكانت خير ما يفسر به الحديث، ولكن الذى نأسف له أن كتابه فى " وصف الإيمان وشعبه " مفقود ...

وقد عد صاحب الفتح – أى فتح البارى لابن حجر - تسعاً وستين خصلة، قال (إنها يمكن عدها تسعاً وسبعين إذا أفرد بعضها عن بعض، ولكنه لم ينسبها إلى ابن حبان، بل اعترف بأنه لم يقف على بيانها من كلامه) [2]

حقيقة الإيمان عند أبى حنيفة

قال أبو حنيفة.: (أهل القبلة مؤمنون، لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شئ من الفرائض ...

ومن أصاب الإيمان وضيّع شيئاً من الفرائض كان مؤمناً مذنباً، وكان لله تعالى فيه المشيئة: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئاً فعلى ذنب عذبه، وإن غفر له فذنبا يغفر).

وهو يقول: (من قتل نفساً بغير حق أو سرق أو قطع الطريق فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، وإنما يعذبهم الله بالإحداث فى النار، ويخرجهم منها بالإيمان [3]).

---

(١) هكذا دون ذكر كلمة تنقص أو تزيد . وفحوى الكلام تدل على كلمة تنقص

(٢) أنظر كتاب المختار من كنوز السنة لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٣٧-٣٣٨

(٣) الفقه الأبسط (ص ٤٧) .

ويقول أبو حنيفة أيضاً: (ولا نكفر مسلماً بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة،[٢]).

وهكذا يظهر أن أبا حنيفة لم يكن يقول بترك العمل، أو بإسقاطه فيما يتصل بالثواب والعقاب الأخرويين، إذا كان هناك الإيمان

وجاء فيما روى عن الإمام أبى حنيفة: أن (الإيمان هو التصديق والمعرفة واليقين والإقرار والإسلام، وهى عنده أسماء مختلفة ومعناها واحد: هو الإيمان وحده وذلك بأن يقر بأن الله ربه، ويصدق بأن الله ربه، ويتيقن بأن الله ربه، فهذه أسماء مختلفة ومعناها واحد كالرجل يقال له: يا إنسان، ويا رجل، ويا فلان[١]

وإذا كان النص السابق يسوى بين الإيمان والإقرار من باب الترادف، فيبدو أن المقصود على وجه الدقة أن الإقرار الذى هو مرادف للإيمان: الإقرار القلبى أما الإقرار باللسان وحده فليس إيمانا، ويدل على ذلك قوله (إن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لم يكن عند الله مؤمناً، ومن آمن بقلبه ولم يتكلم بلسانه كان عند الله مؤمناً) .[٢]

كذلك الأمر بالنسبة للمعرفة وحدها إذ يقول (الإقرار لا يكون وحده إيماناً، وكذلك المعرفة وحدها) [٣].

أما العمل؟ فيصرح الإمام أبو حنيفة إذ يقول: (أما العمل فمستبعد من حقيقة الإيمان، العمل غير الإيمان والإيمان غير العمل) . وهما ـ أى الإيمان والعمل ـ قد يفترقان، يقول الإمـام أبو حنيفة: (لا نكفر أحدا بذنب ، ولا ننفى أحدا من الإيمان)[٤]

---

(٢) الفقه الأكبر بشرح المغنيساوى (ص ٢٧ -٣٠) .

(١) كتاب العالم والمتعلم لأبى حنيفة رواية أبى مقاتل حفص بن سلم السمرقندى- نسخ بمكتبة الأزهر توحيد رقم ٤٥٠٧ عام ٥٨٤٢٤ ص ١٤

((٢ العالم والمتعلم ص ١٠

(٣) الجوهرة المنيفة فى شرح وصية أبى حنيفة لملا حسين بن إسكندر الحنفى ص ٣ ضبع حيدر أباد نسخة بمكتبة الأزهر

(٤) الجوهرة المنيفة فى شرح وصية أبى حنيفة ص ٣

ومع ذلك فيمكن القول بأن الخلاف بين الإمام أبى حنيفة وغيره من أئمة السنة الذين يدخلون العمل فى الإيمان خلاف صورى أو لفظى، وذلك فيما لو ذهبنا إلى أن أعمال الجوارح أثر لإيمان القلب [1]، - كما ذهب إلى ذلك الإمام الشافعى والإمام الرازى - وهو ما نرجح فهم كلام الإمام أبى حنيفة على أساسه، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو فى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، وهذا يدل فى مجموعه على أنه نزاع لفظى لا يترتب عليه فساد اعتقاد . [2].

الإيمان: عند أبى الحسن الأشعرى وأتباعه

الإيمان فى الشرع عند أبى الحسن الأشعرى وأتباعه هو التصديق بما علم مجيء النبى ﷺ به ضرورة، تفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالا فيما علم إجمالا ..

والتلفظ بكلمتى الشهادتين مع القدرة عليه شرط، فمن أخل به فهو كافر مخلد فى النار .. ولا ينفعه المعرفة القلبية من غير إذعان وقبول، فإن من الكفار من يعرف الحق يقينا، وكان إنكاره عناداً واستكبارا، قال الله تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾ ١٤ النمل .

والدليل عنده على أن التلفظ بالشهادتين ليس جزءا من حقيقة الإيمان نسبة الإيمان إلى القلب فى الكتاب والسنة مثل: ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ** ﴾ و﴿ **وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌۢ بِٱلْإِيمَٰنِ** ﴾ وقوله ﷺ: (اللهم ثبت قلبى على دينك) .

والدليل عنده على أن العمل ليس جزءا من حقيقة الإيمان مجيئه مقروناً بالإيمان معطوفاً عليه فى عدة مواضع من الكتاب كقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** ﴾ فإن الجزء لا يعطف على كله [3] .

أما الإسلام عنده فمعناه: (الانقياد الظاهرى وهو التلفظ بالشهادتين والإقرار

((١ وهذا ما ينبغى أن يفهم من كلام الإمام أبى حنيفة باعتبار أنه يسوى فى العبارة السابقة بين الإيمان والإسلام

((٢ أنظر شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية ص ٢٣٧-٢٣٨

(١) أنظر شرح العقائد العضدية لجلال الدين الدوانى ج ٢ ص ٢٨٠ وما بعدها

بما يترتب عليهما .. والإسلام الكامل الصحيح لا يكون إلا مع الإيمان والإتيان بالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج) ..

ولما كان مفهوم الإيمان عند الأشاعرة هو التصديق فقد اختلف العلماء حول المراد بهذا التصديق، أهو التصديق المنطقى [1] أم التسليم القلبى؟

وفى اعتقادى أن الصحيح تفسير التصديق الإيمانى بالتسليم الباطنى والانقياد القلبى، فهذا هو المطلوب شرعاً، سواء صاحبه تصديق منطقى فيزيده رسوخاً، أو لا فيكون الحد الأدنى متحققاً .

وها هو إمام الحرمين ﷺ يبوح لنا بسر !! يؤيدنا فيما نذهب إليه من كون الإيمان المطلوب شرعاً تسليماً باطنياً، صحبه الدليل الفلسفى العقلى أم لم يصحبه، وكان تصديقاً بالمعنى المنطقى أو لم يكن.

يقول الإمام الجوينى: (وها أنا أذكر فى ذلك سراً لا أستجيز إخلاء هذه العقيدة الشريفة منه فأقول: جماهير الخلق من أهل السنة على عقد صحيح فى الدين، يتعلق " بالمعتقَد " على ما هو به.

ولكن عقدهم " ليس " معرفة فإن المعتقِد " لا يعرف " ضرورة، وجماهير الخلق لا يستقلون بالأدلة . ولو امتُحن الملقبون بالإمامة فضلاً عن العوام بدلالة قاعدة واحدة لبقوا فيها حيارى .

فإذا كانت المعرفة لا تثبت بدون الأدلة ولا تحصل ضرورة، ولا يستقل بالأدلة كل من يعانى الكلام أيضاً .. فمعظم " العقود " ليست " معارف " ولكنها " عقود " مستقرة مصممة .

وما كلف الله الخلائق حقيقة معرفته ودرك اليقين [2] فى الدين ..

---

(١) التصديق المنطقى هو إدراك أن النسبة واقعة أو ليست واقعة، وهو أحد قسمى العلم عند المناطقة

(٢) يقصد اليقين الفلسفى، أما اليقين النفسى (اطمئنان النفس وسكونها إلى ما تعتقد) فهو ما تكفلت الشريعة بتوصيل من أسلم نفسه لله إليه، وأما اليقين العملى فهو ما يتحقق للمؤمن منذ اللحظة الأولى فى استعداده للآخرة من باب الإنذار .

والدليل على ذلك أن الأولين ما كلفوا تتبع الأدلة، وإنما طولبوا بعقد مصمم وشهادة والتزام أحكام، وهم إن بقوا فى عاقبتهم على عقدهم ناجون فائزون كما قال النبى ﷺ " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ") . [1]

وإنه ليعلم " العقلانيون " أنه لقد ذهب إلى غير رجعة غرورهم بالعقل واطمئنانهم إليه، ويكفى أن نقرأ فى هذا ما وصلت إليه الفلسفة النقدية الحديثة لنعرف كيف اكتشف العقل النظرى أرض السراب التى يسعى إليها، وأوزار الطريق التى يحملها [2] فلم يبق أمام البشرية غير المنطق العملى الذى قطع به رسول الله طريق الفلاسفة، فألزمهم به، وقد ظهر منهم قبل عصره من ظهر، واستكن فى ضمير الغيب آنذاك آخرون، وهو المنطق – العملى – الذى يجعل الإيمان تسليماً، تسليماً يبقى به المرء على عقده وإن ناوشته الوساوس، لأنه يقوم على الإرادة، الإرادة المصممة على اللجوء إلى سفينة النجاة، النجاة من طوفان مرتقب أو نار مرتقبة، الإرادة المصممة على التماس طريق النجاة، النجاة من حادث " النار " الكونية المنتظرة، ولا سلامة إلا فى التسليم، التسليم لمن يملك سفينة النجاة، التسليم لمن يملك " الصراط " الممدود على هذه النار: تسليم النفس لله، تسليماً يصعد به " المسلم " إلى قمة اليقين، وفقاً لمنهج تربوى متكامل جاءت به شريعة الإسلام .

العلاقة بين الإسلام والإيمان

لفظ " الإيمان ":- يستعمل متعدياً بنفسه كقولك آمنت فلانا أى أعطيته الأمان، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ ٤ قريش، ويستعمل لازماً يتعدى بالباء أو اللام فيكون معناه التصديق ومنه قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ ١٣٦ البقرة، وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ ٧٥ البقرة .

ومعنى الإيمان لازما يرجع إلى معناه متعدياً لأن من آمن بك أى صدَّقك فقد أمنك من التكذيب والمخالفة من ناحية، وأمن عاقبة التكذيب والمخالفة من ناحية

---

(١) أنظر العقيدة النظامية للإمام الجوينى ط ١٩٤٨ ص ٦٥

(٢) أنظر نقد نظرية المعرفة عند المتكلمين، فى كتابنا " الأسس المنهجية لبناء العقيدة الإسلامية "

أخرى، ولعل هذا كان ملحوظاً فى إطلاق الإيمان على المعنى الشرعى، لأن المؤمن هنا أمن عاقبة التكذيب والمخالفة، وفى اعتقادى أن هذا هو مدخل الإنسان إلى الإسلام، إذ أمن عاقبة التكذيب والمخالفة بعد إذ يأتى الرسول ويوجه " إنذاره " للعالمين .

وكذلك الإسلام له فى اللغة استعمالان: متعدياً، فيكون معناه التسليم، أى الإعطاء تقول أسلمت درهماً فى ثوب أى أعطيت، وتقول: أسلمت أمرى إلى الله أى أسلمته إليه [1].

ويستعمل لازماً يتعدى بحرف الجر فيكون معناه الانقياد، تقول أسلمت لله، أى انقدت لله .

وهنا نجد أن معنى الإسلام لازماً يرجع إلى معناه متعدياً، لأن من أسلم للغير فقد سلم نفسه له .

وإذا تأملنا معنى الإسلام – لازماً أو متعدياً – وجدناه لا يخلو من معنى السلام، أى الأمان من المخاوف[2]. وبهذا يلتقى منذ البداية معنى الإيمان والإسلام: يحصل إسلام النفس لله فيأتى الأمن والإيمان .

والسؤال بعد ذلك بالنسبة للاستعمال القرآنى:

فى القرآن الكريم نجد أنه فى بعض المواضع قد استعمل كلاً من الإيمان والإسلام وله متعلق خاص يتعدى إليه بالباء أو اللام وحينئذ يكون المقصود بالإيمان، التصديق مطلقاً، بحق أو بباطل، والمقصود بالإسلام الانقياد مطلقاً لحق أو لباطل، كقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ** ﴾ ٥٢ العنكبوت، وكقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾ ١٣٣ البقرة، بأسلوب القصر، أى غير مسلمين لغيره تعالى، وهنا يكون الاستعمال فى نطاق المعنى اللغوى العام .

---

(١) أنظر كتاب (المختار من كنوز السنة) لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٥٧

((٢ ومنه اسم الله تعالى " السلام ": أمان من المخاوف وسلامة من النقص .

أما إذا جاءت الكلمة دون أن تتعلق بمتعلق خاص، أى لم تأت متعدية بالباء أو باللام، فيكون المراد بكل منهما حقيقته الشرعية، فالإيمان بغير متعلق يكون معناه الإيمان بالله، والإسلام بغير متعلق يكون معناه الإسلام لله، كقوله تعالى: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى المؤمنين بالله، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ أى الإسلام لله .

لكن السؤال يبقى قائما: هل تكون العلاقة بين الكلمتين العموم والخصوص المطلق بأن يكون الإيمان خاصا بالباطن والإسلام أعم؟

أم أن الإيمان خاص بالباطن والإسلام خاص بإسلام الظاهر والعلاقة بينهما التباين؟

أم أنهما قد أزيلت من بينهما تلك الحواجز اللغوية وأصبحتا فى عرف الشرع كلمتين مترادفتين؟

أم أن الأمر يختلف بين ما إذا اجتمعت الكلمتان فى الذكر، أو افترقتا؟

للإجابة على ذلك يذهب العلامة ابن أبى العز فى شرحه للعقيدة الطحاوية إلى أن الإسلام والإيمان إذا افترقا فى الذكر كانت العلاقة بينهما الترادف، وإذا اجتمعا فى الذكر كانت العلاقة بينهما التباين

وأورد بعض الأدلة على المغايرة بين الإسلام والإيمان عند اجتماعهما فى الذكر:

فى ذلك حديث جبريل عليه السلام فى سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم جواب الرسول ﷺ وقوله " هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم " أخرجه البخارى ومسلم، فجعل الدين هو الإسلام، والإيمان، والإحسان (فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاثة: مسلم ثم مؤمن ثم محسن . والمراد بالإيمان فى الحديث ما ذكره مع الإسلام قطعاً . والمراد بالإحسان فى الحديث أيضاً ما ذكره مع الإسلام والإيمان ..) .

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان – حيث اجتمعا – قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ

﴿ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ ١٤ الحجرات: يعنى انقدنا بظواهرنا . فهم لم يحققوا الإيمان بعد

وهنا يذهب بعض المفسرين إلى أن هذا يعنى أنهم منافقون فى الحقيقة. ويذهب آخرون – ورأيهم عندى أرجح -: أنهم ليسوا كاملى الإيمان لا أنهم منافقون، كما نفى الإيمان – أى الإيمان الكامل - عن القاتل والزانى والسارق ومن لا أمانة له ..

ويؤيد التفسير الأخير أمور:

أنه قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ ١٥ الحجرات، فهذا يعنى أن المقصود بالإيمان ما يملأ القلب، لا ما يصطحب معه شيئا من وساوس النفس فهؤلاء الأعراب منتف عنهم "الإيمان الكامل " .

أنه سبحانه وتعالى قال عن هؤلاء الأعراب ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة .

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا أسلمنا، والمنافق لا يؤذن له بذلك تعبيراً، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى عنهم الإيمان، ولنهاهم عن أن يمنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون، كما كذَّب المنافقين فى قولهم نشهد بأنك رسول الله.

ومن أمثلة التفرقة بين مفهوم الإسلام والإيمان إذا اجتمعا: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ٣٥ الأحزاب .. وقوله ﷺ: " اللهم لك أسلمت وبك آمنت " متفق عليه، .. وروى عنه ﷺ أنه قيل له " مالك عن فلان والله إنى لأراه مؤمناً، قال: أو مسلماً " – متفق عليه - قالها ثلاثاً فأثبت له الإسلام وتوقف فى اسم الإيمان . (١)

وعلى هذا الأساس ففى حال اجتماع الكلمتين فى الذكر يكون الإيمان أعم من

((١ شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية ص ٢٥٣

الإسلام، والإحسان أعم من الإيمان، وذلك من ناحية المفهوم، أى المعنى الذهنى للكلمة: حيث يشمل الإيمان الإسلام وما هو أكثر منه، ويكون الإحسان أعم منهما حيث يشمل الإحسان الإسلام والإيمان وما هو أكثر منهما

وأما من ناحية التحقق الخارجى فى الأفراد: فيكون الإيمان أخص من الإسلام، والإحسان أخص من الإيمان والإسلام، وهذا كالرسالة والنبوة، فالرسالة أعم مفهوماً وأخص إفرادا .

أما إذا افترق الإيمان والإسلام فى الذكر فكل منها يتضمن الآخر: إذا أفرد اسم الإيمان فهو يتضمن الإسلام . وإذا أفرد اسم الإسلام (فقد يكون مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع) [1].

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر .

ويلخص الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز المسألة قائلاً: " الذى يستقرئ موارد الاستعمال القرآنى يرى أنه تارة يراد من الإيمان خصوص الاعتماد الباطنى، وتارة يراد به الدين بجملته، وكذلك يراد بالإسلام تارة خصوص انقياد الظاهر، وتارة يراد به الأمران ..

ثم يستخلص المتتبع لتلك الاستعمالات قاعدة، وهى أنهما – أى هاتين الكلمتين - إذا اجتمعتا، أى تجاورتا فى الاستعمال القرآنى – افترقتا – أى قصد بكل منها معنى غير معنى الأخر، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وإذا افترقتا – أى لم تتجاورا فى الاستعمال – اجتمعتا فى المعنى، أى كان المقصود بكل منهما فى مواضعه، معنى يشمل المعنيين معاً [2]"

وعلى هذا النحو نفهم الحديث النبوى الذى جمع بين الكلمتين فى الاستعمال: ما الإسلام؟، ما الإيمان؟ ما الإحسان؟ هنا نقول أراد بالإسلام انقياد الظاهر . وبالإيمان انقياد الباطن . وبالإحسان كمال الجمع بينهما .

((١ شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية ص ٢٥٠

(٢) المختار من كنوز السنة ص ٧٣-٧٤

ولا ينبغى أن نخلط هنا بين الإسلام بمعنى انقياد الظاهر وبين النفاق الذى يعنى التظاهر بالانقياد، فالأول يسلم ما يقع تحت إرادته وسيطرته فى ذلك الحال، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها، والثانى لا يسلم ظاهرا ولا باطنا وإنما يتظاهر بالإسلام. وشتان بين الأمرين .

أما القائلون بالترادف بين الإسلام والإيمان ولو اجتمعتا فى الذكر فلهم شبهات:

منها أنهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾ وهذا يعنى أن المقصودين بالإخراج جماعة واحدة فى بيت واحد سماهم مؤمنين ثم سماهم مسلمين ليدل على أن المعنى واحد فى الحالين .

ولا حجة لهم فيه لأنه يمكن القول بأن أهل البيت المخرجين كانوا متصفين بالأمرين معا: بالإسلام والإيمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما ..

ويحتجون بالتشنيع على من قال بالمغايرة: أنه ما قوله فى حكم من آمن ولم يسلم، أو أسلم ولم يؤمن: فى الدنيا والآخرة؟ فإذا أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله .

كما يحتجون بأنه لو كان الإسلام هو الأمور الظاهرة لكان ينبغى ألا يقبل إيمان المُخْلِص لأنه لم يوصف بالإسلام: أى بالمعنى المذكور للإسلام .

ولا حجة لهم فى هاتين الحجتين: لأن القول بالمغايرة كما سبق أن أوضحنا إنما يتحقق فى حال اجتماع اللفظين فى الذكر ولا تغاير بينهما فى حال الافتراق،، ولأنه إذا نفينا الإيمان عن مسلم فالمقصود الإيمان الكامل أى الذى لا يصحبه خواطر ووسوسة.[1]

زيادة الإيمان ونقصه:

ذهب جمهور المعتزلة إلى أن الإيمان يزيد وينقص .

((١ أنظر شرح ابن أبى العز للعقيدة الطحاوية فى مبحث الإيمان والإسلام من ص ٢٣٦- ٢٥٠ وارجع إلى مبحث الوصول إلى اليقين من كتابنا الأسس المنهجية من ص ٤٠٣- ٤٠٩

أما السلف وأهل السنة فقد ذهبوا إلى أن الإيمان يزيد وينقص كذلك .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى كتابه الإيمان (كان أهل السنة والحديث على أن الإيمان يتفاضل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص) وحجته بمثل ما سبق عن السلف حيث قد ثبت لفظ الزيادة والنقصان عن الصحابة، ولم يعرف فيهم مخالف .

ذكر الحافظ أبو القاسم، هبة الله اللالكائى فى كتابه " شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة": أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وبه قال من الصحابة: عمر بن الخطاب، وعلى، وأبن مسعود ومعاذ، وأبو الدرداء، وابن عباس، وابن عمر، وعمار وأبو هريرة، وحذيفة، وسلمان، وعبد الله بن رواحه، وعائشة رضى الله عنهم جميعاً، ومن التابعين كثيرون ذكر أسماءهم [١].

ومن ذلك ما رواه أبو إسحاق الثعلبى فى تفسيره بسنده عن ابن عمر قلنا يا رسول الله: إن الإيمان يزيد وينقص قال: "نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار" وله شواهد فى البخارى وفى ابن ماجة [٢].

ومن ذلك ما روى عن سيدنا على كرم الله وجهه (إن الإيمان ليبدو لمعه بيضاء، فإذا عمل العبد الصالحات نمت فزادت، حتى يبيض القلب كله . وإن النفاق ليبدو نكته، فإذا انتهك الحرمات نمت وزادت حتى يسود القلب كله فبطبع عليه، فذلك هو الختم) [٣].

وإن فى هذا لتفسيرا لقوله ﷺ (تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأى قلب أشربها نكتت فيه نكته سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكته بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفاء فلا يضره فتنة ما دامت السماوات

---

(١) انظر كتاب الإيمان للدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ط ١٩٧٨ ص ١٩٩-٢٠٠

(٢) أنظر شرح العقيدة الطحاوية للغنيمى ص ١٠٠

(٣) أنظر إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى ج ١ ص ١٢٠

والأرض . وآخر أسود لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) رواه مسلم وهو أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٤ المطففين .

وقد روى عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أن الإيمان يزيد وينقص، وروى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قوله (إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم: أيزداد هو أم ينقص).

وروى أيضاً بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله لأصحابه (هلموا نزداد إيماناً) فيذكرون الله عز وجل .

وروى أيضاً عن ابن مسعود قوله فى دعائه (اللهم زدنا إيماناً ويقيناً، وفقهاً) [1]

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، فقد ورد عنه أن (إيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص ..) وهو يقارن بين إيماننا وإيمان الملائكة والرسل فيقول: (وقد حدثتك أن الإيمان غير العمل فإيماننا مثل إيمانهم لأنا صدقنا من وحدانية الرب وربوبيته وقدرته وبما جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة، وصدقت به الأنبياء والرسل، فمن ههنا زعمنا أن إيماننا مثل إيمان الملائكة، لأننا آمنا بكل شئ آمنت به الملائكة من عجائب آيات الله ولم نعاينه نحن) .

يقول الإمام الطحاوى (والإيمان واحد وأهله فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى) وهو بهذا يتفق كما هو ظاهر مع ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة من أن الإيمان واحد لا يزيد ولا ينقص

ولكن العلامة ابن أبى العز شارح العقيدة الطحاوية يرى أن الإمام الطحاوى قد أشار بذلك: (إلى أن التساوى إنما هو فى أصله، ولا يلزم منه التساوى من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله فى قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى).

---

(١) انظر كتاب الإيمان للدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ط ١٩٧٨ ص ١٩١- ١٩٢

والشارح يبين لنا أن الزيادة فى الإيمان ليست محصورة فى زيادة المؤمَن به، إذ أين زيادة المؤمَن به فى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أو فى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ .

يقول الإمام البغدادى:كل من قال: إن الطاعات من الإيمان أثبت فيه الزيادة والنقص، وكل من زعم أن الإيمان هو الإقرار الفرد منع من الزيادة والنقصان فيه .

وأما من قال: إن التصديق بالقلب فقد منعوا من النقصان فيه، واختلفوا فى زيادته فمنهم من منعها ومنهم من أجازها .[1]

وحاول الإمام الباقلانى حل مشكلة التردد بين زيادة الإيمان وعدم زيادته، إذ جعل الإيمان يزيد وينقص من حيث الجزاء المستحق له من عند الله باعتبار ما يصاحبه من عملٍ لم يكن لتصبح له قيمة قط بغير الإيمان، أما الإيمان من حيث التصديق فى ذاته أو صورته فلا يزيد ولا ينقص .[2]

ويقول إمام الحرمين الجوينى:

(ذهب أئمة السلف إلى أن الإيمان معرفة بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، فهؤلاء أدرجوا الطاعات تحت اسم الإيمان، وهذا غير بعيد فى التسمية، فمن أطلق الإيمان على الطاعات كلها يقول على مساق أصله: يزيد الإيمان بزيادة الطاعات وينقص بنقصانها، ومن قال الإيمان هو التصديق، فمن علم وعرف حقاً فلا يتفاوت التصديق المعلوم بالأعمال زادت أو نقصت) .

ويصرح الإمام الجوينى بميله إلى القول بزيادة الإيمان ونقصه، وإن لم تدخل فيه

---

(١) وأقول: الأحرى أن يقال عن القائلين بالزيادة دون النقص، أن للإيمان حداً أدنى إذا كان عنده لم يقبل النقص . وليس مراد
القائل بالزيادة والنقص غير ذلك، سواء أدرج فى عداد القائلين بأن الطاعات جزء من الإيمان، أو من القائلين بأنه التصديق فقط .

(٢) الإنصاف للباقلانى ص ٥٧

الطاعات، بناء على ما قرره من أن الإيمان المطلوب شرعاً عقد قلبى، يقوم ويستقر وإن لم يصحبه دليل عقلى، وأن الله كلف الخلائق هذا الإيمان ولم يكلفهم تتبع الأدلة، ثم يقول (وعلى هذه القاعدة يزيد الإيمان وينقص بالطاعة، فإن من كان معتمده عقداً تأكد عقده بالمواظبة على الطاعة، وإن ضرى بالمعاصى وهَى عقده، وهذا يجده معظم الخلق من أنفسهم) (١).

ويقول الإمام الغزالى فى كتابه الاقتصاد فى الاعتقاد: لفظ الإيمان مشترك (٢) بين ثلاثة معان:

قد يعبر به عن التصديق اليقينى البرهانى، ودليله أن من عرف الله تعالى بالدليل ومات عقب معرفته فإنا نحكم بأنه مات مؤمناً.

وقد يعبر به عن الاعتقاد التقليدى إذا كان جزماً، ودليله أن جماهير العرب كانوا يصدقون رسول الله ﷺ بمجرد إحسانه إليهم وتلطفه بهم، ونظرهم فى قوانين أحواله من غير نظر فى أدلة الوحدانية ووجه دلالة المعجزة، وكان يحكم الرسول ﷺ بإيمانهم.

وقد يعبر به عن تصديق معه العمل بموجب التصديق، ودليله قوله ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة..) الخ منها (إماطة الأذى عن الطريق).

ويقرر الإمام الغزالى أن الإيمان إذا أخذ بإطلاقه الأول لم يتصور زيادته ولا نقصانه، بل اليقين إن حصل بكماله فلا مزيد عليه، وإن لم يحصل بكماله فليس بيقين وهى خطة واحدة ولا يتصور فيها زيادة ولا نقصان إلا أن يراد زيادة وضوح (!) أى زيادة طمأنينة النفس إليه، لأن النفس تطمئن إلى اليقينيات النظرية فى الابتداء، فإذا ما تواردت الأدلة على شئ واحد أفاد بظاهر الأدلة زيادة طمأنينة، وكل من مارس العلوم أدرك تفاوتاً فى طمأنينة نفسه إلى العلم الضرورى ... فالتفاوت فى طمأنينة النفس مشاهد لكل ناظر من باطنه.

---

(١) العقيدة النظامية للإمام الجوينى ط ١٩٤٨ م ص ٦٤-٦٥

(٢) المراد بالمشترك: اللفظ الموضوع لمعان مختلفة كالعين.

ونرى أن هذه إشارة إلى المنهج النفسى الذى يجب أن يكون الحكَم فى موضوعنا وهو ما سارت عليه النصوص، ولا شك أن الأمور النفسية تقبل الزيادة والنقصان: كالفرح والحزن والسكينة ... إلخ .

ثم يقرر الإمام الغزالى أن الإيمان إذا أخذ بإطلاقه الثانى (أى الاعتقاد التقليدى الجازم) فكذلك، أى يزيد وينقص، ولا سبيل إلى جحد التفاوت فيه، وإنما ينكره الذين سمعوا من العلوم والاعتقادات أساميها، ولم يدركوا من أنفسهم ذوقها، ولم يلاحظوا اختلاف أحوالهم وأحوال غيرهم فيها .

أما إذا أخذ الإيمان بالإطلاق الثالث (تصديق معه عمل بموجب التصديق) . يقول الإمام الغزالى إنه فى هذا المقام لا يخفى تطرق التفاوت إلى نفس العمل، ثم يتساءل: هل يتطرق التفاوت إلى نفس التصديق بسبب المواظبة على العمل؟

ومع أن الإمام الغزالى يقول عن هذه المسألة إن فيها نظراً لكنه يبادر إلى أن يقول:

(وترك المداهنة فى مثل هذا المقام أولى، والحق أحق ما قيل فأقول: إن المواظبة على الطاعات لها تأثير فى تأكيد طمأنينة النفس إلى الاعتقاد التقليدى ورسوخه فى النفس، وهذا أمر لا يعرفه إلا من سبر أحوال نفسه وراقبها فى وقت المواظبة على الطاعة، وفى وقت الفترة، ولاحظ تفاوت الحال فى باطنه فإنه يزداد بسبب المواظبة على العمل أنسه لمعتقداته ويتأكد به طمأنينته، حتى إن المعتقد الذى طالت منه المواظبة على العمل بموجب اعتقاده أعصى نفسا على المحاول تغييره وتشكيكه ممن لم تطل مواظبته .

ولذلك تعبدنا الله بالمواظبة على أفعال هى مقتضى تعظيم القلب من الركوع والسجود ليزداد بسببها تعظيم القلوب، فهذه أمور يجحدها المتحذلقون فى الكلام الذين أدركوا ترتيب العلم بسماع الألفاظ، ولم يدركوها بذوق النظر، فهذه حقيقة هذه المسألة) [1]

وإننى أرى التسوية بين ما كان برهانا أو تقليدا فى هذا المقام، فكلاهما يتأثر بالمواظبة على الطاعات أو التقصير فيها فهذه هى النفس البشرية .

(١) الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٠١-١٠٢

والإمام الرازى وإن صرح بأنه وأصحابه يذهبون إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص باعتبار أنه التصديق، إلا أنه عاد فقال (والتوفيق أن يقال: الأعمال من ثمرات التصديق، فكل ما دل على أن الإيمان لا يقبل الزيادة كان مصروفا إلى أصل الإيمان، وما دل على أنه قابل لها فهو مصروف إلى الإيمان الكامل) [1] وهو يعنى أن أصل الشيء يظل ثابتا لا يزاد ولا ينقص من حيث هو أصل، فإذا نظرنا إليه من حيث تحركه نحو الكمال فإنه يقبل الزيادة ليصير كاملا، ويقبل النقص لينزل عن مرتبة الكمال، والله أعلم .

وينقل العلامة نجم الدين عمر النسفى فى كتابه العقائد النسفية – بعد أن يشرح القول بعدم زيادة الإيمان ونقصه – قول بعض المحققين قائلاً (لا نسلم أن حقيقة الإيمان لا تقبل الزيادة والنقصان، بل تتفاوت قوة وضعفا، للقطع بأن تصديق آحاد الأمة ليس كتصديق النبى ﷺ، وهذا قال إبراهيم عليه السلام "ولكن ليطمئن قلبى") .

وأراد بعضهم التوفيق بين القول بزيادة الإيمان ونقصه والقول بعدم زيادته ونقصه بأن المراد عند القائلين بعدم الزيادة والنقص: نفس التصديق، والمراد عند القائلين بالزيادة والنقص، الإيمان الشرعى .

(قالوا: وهذا توفيق بين ظواهر النصوص التى جاءت بالزيادة وأقاويل السلف، وبين أصل وضعه فى اللغة وما عليه المتكلمون) [2].

أقول: أولا: كلامنا فى الإيمان الشرعى، فلا وجه لتوجيه أحد القولين إلى مفهوم آخر .

وثانياً: إن ضرورة التوفيق إنما تكون عند تعارضها مع ضرورة العقل، أو عند تعارضها مع النصوص والأمر هنا ليس كذلك:

فلا تعارض بينها وبين ضرورة العقل، بدليل أن المتكلمين أنفسهم مختلفون فى هذه المسألة .

---

(١) أنظر كتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للإمام الرازى ص ١٧٥ وما بعدها

(٢) أنظر كتاب الإيمان للدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ص ١٩٨

ولا تعارض بينها وبين النصوص، فالنصوص متضافرة على زيادة الإيمان ونقصه فهى من المحكم فى هذا المقام

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ﴾ بسنده عن أبى مطيع عن حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة (أن وفد ثقيف سألوا: يا رسول الله: الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا، الإيمان مكمل فى القلب، زيادته كفر ونقصانه شرك) فإن العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية يقول (سئل شيخنا عماد الدين ابن كثير – رحمه الله – عن هذا الحديث فأجاب بأن الإسناد من أبى الليث إلى أبى مطيع مجهولون لا يعرفون فى شئ من كتب التواريخ المشهورة، وأما أبو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخى فقد ضعفه غير واحد، وقال النسائى متروك، واتهمه شعبة بالوضع حيث قال " لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً " [1].

وأما قولهم: عطف العمل على الإيمان فى القرآن الكريم وكونه يقتضى المغايرة ...فالمغايرة على مراتب منها المغايرة بالمباينة ومنها ما ليس كذلك [2]

ونضيف: ومنها المغايرة بالإظهار بعد الإبهام، أو بالإعلان بعد الإضمار، أو بالتفصيل بعد الإجمال ومنه المغايرة بين الكل والجزء .

وفى اعتقادى أن **الإيمان والعمل يتركبان تركيباً عضوياً** لا يقوم فيه أحدهما بدون الآخر، ويتناميان فيه معاً بطريقة تبادلية ؛ وما الحد الأدنى من الإيمان (التسليم الباطنى) إلا " فعلاً " أى " عملاً " من أعمال القلب، فكيف نجرد الإيمان من العمل فى أى مستوى من مستوياته؟ وكيف نجرد العمل ـ لوجه الله ـ من الإيمان؟!

وعلى هذا الأساس فإن الإيمان يزيد وينقص ولو قصرناه على عمل القلب .

وكما ذكر العلامة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فإن الإيمان قابل للزيادة

---

(١) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٤٦ -٢٤٧

(٢) أنظر العلامة ابن أبى العز فى شرحه للطحاوية ص ٢٤٦-٢٤٨

والنقص سواء أخذناه بمعنى التصديق، أو بمعنى يجمع التصديق والقول والعمل، وكما يقول (.. لكن النقصان له حد معين يقف عنده، هو أن يكون انتقاصا من الزيادة لا من الأصل، فإذا جاوز ذلك لم يسم نقصاناً، بل يسمى ذهاباً ومحقا وبطلانا) .

(أما الإيمان " بالمعنى الجامع " فأمر الزيادة والنقصان فيه ظاهر .. وإنما الكلام فى الإيمان " بمعنى التصديق واليقين نفسه " فالمشهور عند العلماء أن التصديق نفسه لا يزيد ولا ينقص . والصواب أن التصديق نفسه تعرض له الزيادة والنقص من جهات ثلاث، من جهة وسيلته، ومن جهة متعلقه، ومن جهة ثمرته) .

ويتضح الحل أمام الدكتور دراز من حيث ينظر إلى الموضوع من زاوية طبيعة النفس البشرية .

فمن ناحية تفاوت التصديق من جهة وسيلته:

يستدل على ذلك بقوله (كلما تكاثرت الشواهد والبراهين التى تؤيد المعلوم كان أشد رسوخاً فى النفس وأعمق أثرا فى القلب) ويقول (انظروا إلى قضية وصل إليكم علمها عن طريق الأخبار المتواترة، ثم عن طريق المشاهدة وقارنوا فى أنفسكم بين درجة العلم فى الحالتين)؟

ثم يضرب المثل لذلك بقول إبراهيم عليه السلام "رب أرنى كيف تحيى الموتى، قال: أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ... "

... بل العيان نفسه يختلف، فليس العيان الذى يقع مرة ثم تلحقه غيبة كالعيان الذى يتكرر كل يوم ...) .

وأما تفاوت التصديق زيادة ونقصاً من جهة متعلَّقه:

فواضح لأنه كلما زادت قضايا الإيمان وحصل الإيمان بها تفصيلاً، بعد أن كان جملة ... زاد الإيمان بداهة .

يقول الدكتور دراز (لا تقولوا إن هذه المعلومات الكثيرة متى كانت داخلة فى

موضوع ذلك الأمـر الإجمالى صارت معلومة بعلمه سواء اطلع عليها أو لم يطلع عليهـا) ... هنا يلجأ الدكتور دراز إلى المنهج النفسى فى حسم الخلاف إذ يقول (لأن هناك فرقاً شاسعاً بين حصول الشيء فى النفس قصداً وحصوله ضمناً وتبعاً ... ومثل هذا كمثل حبة واحدة، وحبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) .

وأما تفاوت الإيمان زيادة ونقصاً من جهة ثمرته – وهى العمل –:

فيبينه الدكتور دراز أيضاً من جهة ما أسميه "المنهج النفسى" إذ يقول (إن الفكرة النظرية التى تأخذ آثارها العملية تبقى ماثلة فى الوجدان لا تزاحمها الأضداد، ولا يطغى عليها النسيان، لأنها حاضرة غالباً فى مركز الفكر – أو كما يقول علماء النفس فى بؤرة الشعور – فهى تستمد من العمل قوة وثباتاً وإشراقاً ... وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويسراً ... وهكذا كلما ازداد تكرر العمل بمقتضى تلك الفكرة ازدادت قوة فى نفسها، واستعدادا لإنتاج أمثاله من الأعمال بدون تكلف ..

فكذلك نقول: إن من اعتاد طاعة الله تعالى ازداد إيمانه، ومن كثرت مخالفته لأوامر الله ضعف يقينه إلى حـد مـا [1]، فإن هو اعتاد ذلك لم يؤمن ثباته، على الإيمان) . وهذا هو مقتضى قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ** ﴾ ١٧ محمد، وقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ ٦٣ النور، وعلى هذا يحمل ما ورد عن مروق مرتكب الكبيرة من الإيمان [2].

ما بين الوسوسة و الإيمان:

جاء فى صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة قال: جاء ناس من أصحاب النبى فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الإيمان .

---

(١) أى دون أن ينزل إلى ما تحت الحد الأدنى الذى هو تسليم النفس إراديا .

(٢) أنظر المختار من كنوز السنة للدكتور محمد عبد الله دراز

obeikandl.com

وفى رواية أخرى له بسنده عن علقمة عن عبد الله قال سئل النبى عن الوسوسة قال تلك محض الإيمان .

وهنا يكون السؤال: هل يكون الشخص مؤمناً وهو مشتمل على هذه الخواطر؟

الجواب: نعم طبقاً للحديث .

فيأتى بعد ذلك سؤال آخر: أيكون هذا الإيمان هو ما يصفه علماء الكلام بأنه التصديق المنطقى؟ أم يكون الإيمان نوعاً من الإذعان القلبى الذى تحكمه الإرادة مهما تكن خواطر الفكر وسوانحه؟!

لا يصح أن يقال: إن التسامح فى هذه الخواطر لا يكون إلا إذا تعلقت بغير أصل من أصول الدين، لأن من الحديث أن ما كان يدور فى صدور بعض الصحابة المتسائلين هى أمور تتعلق بذات الله وصفاته: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟!

وهذا يؤكد أن الإذعان الإرادى كاف فى تحقيق أصل الإيمان مهما تكن الوساوس والخواطر، والشخص إذا أذعن على هذا النحو أى أسلم نفسه ووجهه لله، يضع نفسه فى رحاب الله ويستمطر هداه، فلا عليه بعد ذلك من هذه الخواطر إذا استمر فى تسليمه، ومن تسليمه أن يقوم بالشعائر وأن يلتزم الشريعة فهى تدريب نفسى وعملى يصعد به فى مدراج اليقين الذى إن أفلت منه أولاً، يقترب منه ثانياً، ويلتحم به ثالثاً .

هل تكفى كلمة التوحيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ للحكم بدخول صاحبها فى الإسلام!؟

الجواب: نعم، فهذا مقتضى قوله ﷺ فيما أخرجه أبو داود عن معاذ بن جبل رضى الله عنه " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "

فكلمة التوحيد يلزمها **اعترافه بجميع ما يبلغه الرسول عن ربه** لزوما بينا أو غير بين

ولا مفر من ان نفهم هذا الحديث فى ضوء ما اشترطه الحديث فى صحيح البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت

أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم **إلا بحقها** وحسابهم على الله)

وفى هذا يذهب الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أن هذه الشهادة "التوحيد" يلزمها الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، لأن من لم يؤمن بالرسول لم يؤمن بمعجزاته، فكان معتقداً أن لله شريكا فى خلقها، فكان مشركا، فالتوحيد – كما يقول الدكتور دراز – هو جماع الدين كله، وإن أنواع الكفر كلها ترجع إلى الشرك .

ومن جهة أخرى نجد أنه لابد من شيء من البيان: فالكافر إذا قال كلمة التوحيد وحدها ننظر فى أمره على تفصيل، إن كان أصل مخالفته للإسلام إنما هو فى شأن عقيدة التوحيد، اكتفينا بها وحكمنا بإسلامه .

قال النواوى فى شرحه لصحيح مسلم فى باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة: (أما إن كانت مخالفته من أجل شئ آخر أيضاً من أصل النبوة فإن كلمة التوحيد وحدها لا تكفى بل ينبغى أن يضم إليها شهادة الرسالة، كما ينبغى أن يضم إليها ما يكون معروفاً عنه مخالفته لأصل من أصول الدين، على حسب ما يقتضيه المقام، ولا يكتفى بشهادة التوحيد، **لأن استلزام هذه الشهادة لسائر العقائد من قبيل اللزوم غير البين**، فقد يغفل عن شيء منها ويجمع بين التوحيد وبين عقيدة باطلة تضاده غافلاً – أو مغفِلاً – جهة التضاد، فالمطلوب أن تكون هناك دلالة نفهم منها **اعترافه بجميع ما يبلغه الرسول عن ربه**، قوليه كانت هذه الدلالة أو فعلية، أو حالية، أو مركبة من هذا وذاك، إجمالية كانت أو تفصيلية على حسب ما يقتضيه المقام [1].

يقول العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية (والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط – مشيراً بذلك إلى قوله ﷺ "من

---

(١) انظر المختار للدكتور دراز ص ١١٥ - ١١٦ .

قال لا إله إلا الله حرم عليه النار" فإن هذا من المعلوم بالدين بالضرورة، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين فى الدرك الأسفل من النار)[1].

حكم تعليق الإيمان على المشيئة

يقول الطوسى (المعتزلة ومن تبعهم يقولون: اليقين لا يحتمل الشك والزوال، فقول القائل أنا مؤمن إن شاء الله لا يصح إلا عند الشك أو خوف الزوال، وما يوهم أحدهما لا يجوز أن يقال للتبرك).

ويفصل الإمام البغدادى مذهب الأشاعرة والقائلين بأن الإيمان هو التصديق على النحو التالى:

منهم من يجيز الاستثناء وهو أبو سهل محمد بن سليمان الصعلوكى وأبو بكر محمد بن الحسين بن فورك، ومنهم من ينكره وهؤلاء أبو عبد الله بن مجاهد والقاضى أبو بكر الباقلانى، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الاسفراييني.

يقول الإمام الرازى (أكثر أصحابنا قالوا أنا مؤمن إن شاء الله لا لقيام الشك، إما للتبرك، أو للصرف للعاقبة).

ثم يقرر مذهب القائلين بأن جملة الطاعات من الإيمان بأنهم يقولون بالموافاة، وأن كل من وافى ربه على الإيمان فهو المؤمن. ومن وافاه بغير الإيمان الذى أظهره فى الدنيا علم فى عاقبته أنه لم يكن قط مؤمناً، فهم يستثنون فى كون المرء مؤمنا – أى بحسب العاقبة –، ولا يستثنون فى صحة الإيمان، واستدلوا على ذلك بأن الله تعالى أمر بإيمان يدوم إلى آخر العمر، وإذا قطع القاطع إيمانه علم أن الذى أظهره قبل القطع لم يكن الإيمان المأمور به، هو أشبه بمن قطع صلاته قبل تمامها، فعند القطع علم أنه لم يصل.

وقد روى عن ابن أبى مليكة أنه قال: أدركت أكثر من خمسمائة من أصحاب النبى ﷺ: كل منهم يخشى على نفسه النفاق لأنه لا يدرى ما يختم له أ هـ[2].

---

(١) شرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٣٩.

(٢) انظر شرح الطحاوية ص ٢٣٥ – ص ٢٣٦.

والخلاصة أن من العلماء من يحرمه لأنه شك فيما هو إيمان أنه ليس كذلك .

ومنهم من يوجبه لأنه حكم متعلق بالخاتمة وليس لأحد أن يدعى على أى وجه تكون، إلا بعلم الله . أو لأنه حكم متضمن لكمال الإيمان، وهذه تزكيه للنفس ليس له أن يجزم بها .

ومنهم من يجيزها: إذا لم يكن شكه فى أصل الإيمان . تأسياً بقوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ وبقوله ﷺ حين وقف على المقابر " وإنا إن شاء الله بكم لاحقون " [1].

خطر الأمن واليأس على الإيمان

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ويقول تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

وفى الحديث فى صحيح مسلم بسنده عن النبى ﷺ: يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء "

وفى صحيح مسلم عن جابر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه " .

ولمسلم بسنده عن جابر قال: سمعت النبى ﷺ يقول: يبعث كل عبد على ما مات عليه . .

وفى رواية أخرى له أيضاً أنه ﷺ قال: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) .

---

(١) انظر محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازى، وأصول الدين للبغدادى ص ٢٥٣ - ٢٥٤ وشرح الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

obeikandl.com

ولهذا قيل: إن العبد ينبغى أن يكون رجاؤه فى مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه .

وقال الإمام النووى فى شرحه لصحيح مسلم: (قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه . قالوا: وفى حالة الصحة يكون خائفاً راجياً، ويكونان سواء وقيل يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلَّب الرجاء أو محَّضة، لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصى والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه فى هذه الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له ..) أهـ

إيمان الأطفال:

قال **بعض الخوارج** بالتبرى من أطفالنا – أطفال المؤمنين – حتى يبلغوا فيدعون إلى الإسلام، ذهب إلى ذلك العجاردة والصلتية .

وقال آخرون من الخوارج: بالتوقف فى شأنهم حتى يبلغوا فيدعون إلى الإسلام دون التبرى، هؤلاء هم الثعالبة فيما ذكره عنهم الأشعرى، وذكر البغدادى أنهم يقولون: نحن على ولايتهم صغاراً وكباراً إلى أن يبين لنا منهم إنكار .

وينقل البغدادى عن الإباضية أنهم يقولون فى أطفال موافقيهم من أهل ملة الإسلام .. إذا ماتوا دخلوا الجنة، أما أطفال مخالفيهم فهم فى النار مع آبائهم .

وزعمت **الكرامية** أن الإيمان وجد من الكل فى عالم الذر، وعليه فإن الأطفال يولدون مؤمنين بالإقرار السابق، سواء ولدوا من مؤمن أو كافر .

وقال المعتزلة بوجوب الإيمان عند تمام العقل بغير شرط البلوغ، وعليه فإن الطفل قبل كمال عقله ليس بمؤمن ولا كافر، لكنه إن مات دخل الجنة . فإذا كمل عقلة – قبل البلوغ – وجب عليه الإيمان: بما يعرف بالعقل فى الحالة الثانية من معرفته بنفسه، ووجب عليه الإيمان بما يعرف بالشرع فى الحالة الثانية من سماعه خبر الشرع على وجه يقطع العذر، وإلا ... صار كافراً .

وقال بعض المعتزلة يجب عليه ما تقدم لا فى الحالة الثانية ولكن بعد مهلة يمكن فيها الاستدلال.

وقال الإمام **أبو الحسن الأشعرى** ومن تابعه: لا وجوب إلا بالشرع، فوقت وجوب الإيمان هو اجتماع أمرين تمام العقل والبلوغ، إذ الشرع لا يلزم بغيرهما، ولقوله ﷺ: (رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق) [1]. وعليه فإنه لا يجب على الطفل – أى الذى لم يبلغ – شيء . ويحكم إسلامه بإسلام أبيه عند مالك، أو بإسلام أحدهما عند الشافعى وأبى حنيفة .[2]

حكم أطفال المشركين:

يرى الأزارقة، والعجاردة من **الخوارج** أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون فى النار .

ويرى الإباضية التوقف فى أطفال المشركين: يجوز تعذيبهم، ويجوز دخولهم الجنة تفضلاً من الله .

ويرى **الكرامية** أن أطفال المشركين مؤمنون لما حصل من الإقرار بالإيمان فى عالم الذر .

أما المعتزلة فيقول البغدادى: أنهم أفشوا بين الناس قولهم بأن من مات طفلاً كان من أهل الجنة، مع أن ذلك لا يتفق مع ما تقدم من قولهم بوجوب النظر عليهم بمجرد تعقلهم، فإذا مضت المدة بعد هذا التعقل ولم يستدل ثم مات كان كافراً مستحقاً للخلود فى النار .

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى كتابه التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ج ١ ص ١٠٨ ط ١٣٨٧ بالمغرب، وصاحب عون المعبود شرح سنن أبى داود ج ١٢ ص ٤٨ نشر بيروت، وصاحب فتح البارى ج ٢ ص ٣٤٦ نشر بيروت عام ١٣٧٩، وابن حزم فى المحلى ج ١٠ ص ٣٤٤، وابن قدامة فى المغنى ج ٧ ص ٢٩٠ ط ١٤٠٤ هـ نشر بيروت

(٢) أنظر أصول الدين للبغدادى وكتابنا نشأة الآراء والمذهب والفرق الكلامية .

أما أهل السنة فقد أجمعوا على أن من مات من ذرارى المؤمنين صغيراً، أو بلغ مجنوناً ومات يكون مع المؤمنين فى الجنة . وتوقف المتحرجون منهم فى أطفال المشركين لاختلاف الأخبار فيهم .

والأصح أنه ما لم يصح من هذه الأخبار شيء يرجع إلى القاعدة التى اتخذت أساساً للحكم على أطفال المؤمنين. فهى لم تكن مقيدة بهم، القاعدة أن الطفل لا يعاقب لأنه لم يقصر فى أداء واجب، وهو لم يجب عليه شئ قبل البلوغ [1].

الكبائر والصغائر

وردت طائفة من الآيات والأحاديث تبين أن الذنوب منها ما هو كبير، ومنها ما هو صغير، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ ٤٩ الكهف .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ ٢ النساء .

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ ٣١ الإسراء .

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ٣١ النساء .

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ ٣٢ النجم .

﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ٢١٧ البقرة .

﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ ٢١٧ البقرة .

﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ٢١٩ البقرة .

﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ ٦١ يونس .

ومن ذلك ما رواه ابن حبان فى صحيحه بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن من أكبر **الكبائر أن يسب الرجل والديه، قالوا: وكيف يسب الرجل والديه، قال يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)**

وقد اختلف العلماء فى تعريف الكبائر على أقوال:

((١ انظر أصول الدين للبغدادى وكتابنا نشأة الآراء والفرق والمذاهب الكلامية

قيل: هى ما اتفقت الشرائع على تحريمه، وهذا التعريف غير جامع لأنه يقتضى أن شرب الخمر أو الفرار من الزحف، أو التزوج ببعض المحارم، أو التزوج بمحرم من الرضاعة أو الصهرية أو نحو ذلك ليس من الكبائر . وهو غير مانع لأنه يقتضى أن الحبة من مال اليتيم أو الكذبة الواحدة الخفيفة من الكبائر . وهو ليس كذلك باتفاق

وقيل: هى ما سد باب المعرفة بالله، أو ذهاب الأموال والأبدان، وهذا تعريف غير جامع لأنه يقتضى أن أكل الخنزير والميتة والدم أو منع الزكاة ليس من الكبائر، وهذا باطل باتفاق .

وقيل: إنها تسمية نسبية، فالكبيرة تكون كذلك بالنسبة لما دونها، والصغيرة تكون كذلك بالنسبة لما فوقها، وهذا غير صحيح لأنه يقتضى مخالفة النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر بذاتها وكبائر بذاتها . ويقتضى أن تختلف العقوبة باختلاف الأشخاص، بل يقتضى أن يعاقب المسرف فى الذنوب على ذنب أقل مما يعاقب عليه غير المسرف، وهذا ظاهر البطلان

وقيل إنها لا تعلم أصلاً فقد أخفيت كليلة القدر، للتورع عنها حيث يجرى بالخاطر أنها كذلك، وهذا فضلاً عن أنه تجاهل للنصوص التى ذكرناها، فإن قائل ذلك كما يقول العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية عنه: إنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره والله أعلم .

ويؤيد العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية تعريف الكبيرة بأنه: كل ذنب جاء فيه حد فى الدنيا، أو وعيد فى الآخرة، والصغيرة ما لم يرد فيها شئ من ذلك، وبيَّن أن الوعيد الأخروى نوعان: وعيد خاص، وهو ما صرح فيه باستحقاق النار أو اللعنة أو الغضب، ووعيد عام وهو ما لم يصرح فيه بشيء من ذلك، والمراد بالوعيد الذى يجعل الذنب كبيرة الوعيد الخاص لا العام، فهو أى الخاص الذى يقابل ما جاء فى العقوبة الدنيوية من تقدير بقدر هو الحد، أما الوعيد العام فهو الذى يقابل ما جاء فى العقوبة الدنيوية ما جاء بغير تقدير وحد .

ويرجح شارح الطحاوية هذا القول من وجهين:

أحدهما: أنه المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم .

الوجه الثانى: أن الله تعالى قال: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ وهذا يقتضى ألا يستحق هذا الوعد الكريم صنفان من الناس: من توعده الله بغضب أو لعنة أو نار، ومن كان مثله ممن استحق إقامة الحد عليه فى الدنيا .

إلحاق الكبائر بالصغائر والصغائر بالكبائر

يقول العلامة ابن أبى العز شارح الطحاوية: (ثَم أمر ينبغى التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر .

وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها والإصرار عليها ما يلحقها بالكبائر .

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره) [1] .

وهنا نقول: إن الأمر الأول قد يتصور فى بعض الكبائر دون بعض، إذ كيف يتصور الحياء فى الزنا مثلا .

ونقول فى الأمر الثانى: إنه ينطبق على كثير من حالات الفساد فى المجتمع الإسلامى المعاصر: إذ تأتى غالبا من المداومة على الصغائر والاستخفاف بها، كالمداومة على سوء الأدب، أو سوء التصرف، أو قلة الذوق: فى الطرقات والاجتماعات، والندوات، والأسواق، على مختلف المستويات، فهى فى نظر الإسلام كبائر كلما ارتكبت على سبيل المداومة أو الاستخفاف، أو قلة الحياء .

حكم " مرتكب الكبيرة "

ذهبت النجدات من الخوارج:إلى تكفير مرتكبى الحدود من موافقيهم كفر نعمة

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٣٢

obeikandl.com

لا كفر ملة . وقال منهم قوم بأن التكفير إنما يكون بالذنوب التى ليس فيها وعيد مخصوص . فأما الذنب الذى فيه حد أو وعيد فى القرآن فلا يزاد صاحبه على الاسم الذى ورد فيه مثل تسميته زانيا أو سارقا، وصاحبه مع ذلك غير داخل فى الإيمان . كأنهم يقولون بما قالت به المعتزلة (جزئيا): أى لا هو مؤمن ولا هو كافر .

وقالت البيهسية من الخوارج بكفر الرعية تبعاً لكفر الأمام . وقالت العوفية منهم إذا كفر الإمام كفرت الرعية، الغائب منهم والشاهد .

والخوارج على وجه الإجمال تراوح رأيهم فى مرتكبى الكبيرة بين الشرك والكفر كفر اعتقاد، والكفر كفر نعمة يجزى عليها مع ذلك بالخلود فى النار، والإسلام بشرط ألا يكون مصراً عليها ولا مخالفاً للفرقة، بل لقد وصل الأمر عند النجدات إلى أن من استحل باجتهاده محرماً فهو معذور، فيما سوى معرفة الله ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، والإقرار بما جاء من الله جملة، والغريب أن هؤلاء النجدات أسقطوا حد الخمر وأقروا مبدأ التقية [1].

وذهبت الإباضية إلى: أن مرتكب ما فيه الوعيد كافر كفران نعمه لا كفران شرك وذهب بعض الباحثين إلى أنهم قد سبقوا المعتزلة فى القول بالخلود فى النار لطائفة ليست كافرة كفر اعتقاد [2] ولكن كفر نعمة فحسب .

أما المعتزلة: فقد ذهب واصل وعمرو بن عبيد والمعتزلة من بعدهما إلى أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر، وهو فى منزلة بين المنزلتين .

واستدل واصل على مذهبه هذا بأن مرتكب الكبيرة فاسق لا يسمى مؤمناً ولا يسمى كافرا، لأنه لا يستحق أحكام المؤمن ولا أحكام الكافر، اتفاقا، وهو كذلك لا يسمى منافقاً لأن المنافق يستحق إجراء أحكام الكفرة عليه إذا علم نفاقه، وليس كذلك صاحب الكبيرة .

---

(١) أنظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٧٣

(٢) أنظر كتابنا « نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية » ص ٩٨

وهم يعنون بأحكام المؤمن هنا مثل ما جاء فى أول سورة المؤمنون، وبأحكام الكافر مثل الحكم بقتله مرتدا، أو الحكم بالتفريق بينه وبين زوجه المسلمة، أو الحرمان من الميراث بين أصوله وفروعه المسلمين .

ويمكن مناقشتهم هنا بأن أحكام الإيمان التى لا يحكم بها على مرتكب الكبيرة هى أحكام الإيمان الكامل، أما أحكام أصل الإيمان فيجوز الحكم بها عليه .

وهو يستدل أيضاً بالإجماع من حيث أجمعت الفرق كلها على أن مرتكب الكبيرة فاسق، قال واصل لعمرو بن عبيد: أو ليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً ويختلفون فيما عداه من الأسماء؟، فالخوارج تسميه كافرا وفاسقا، والمرجئة تسمية مؤمناً فاسقا، والشيعة تسميه فاسقاً كافر نعمه، والحسن البصرى يسميه منافقاً فاسقا، فأجمعوا على تسمية مرتكب الكبيرة بالفسق، وقالوا: نأخذ بالمتفق عليه ولا نسميه بالمختلف فيه .

ويمكن مناقشتهم فى هذا الادعاء بأنهم خرجوا على الإجماع بقولهم بأنه فى منزلة بين المنزلتين .

ويستدل أيضاً بالآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ حيث سماهم الفاسقين .

ويمكن مناقشتهم هنا بأن هذا الاستدلال لا يمنع من تسمية مرتكب الكبيرة هنا مؤمنا مع تسميته فاسقا كما هو مذهب أهل السنة .

والمعتزلة يضيفون إلى ذلك استدلالهم بأن أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه عندما سئل عن مقاتليه من الخوارج أكفار هم؟ قال: من الكفر فروا، ثم سئل: أمسلمون هم؟ قال: لو كانوا مسلمين ما قاتلناهم .

ويمكن مناقشتهم فى هذا الاستدلال بأن عليا رضى الله إنما سلب عنهم وصف الإسلام الكامل الذى يكف عنهم العقاب فى الدنيا. وهذا التفسير يتفق مع ما ذهب

إليه القاضى عبد الجبار من أئمة المعتزلة إلى أن لفظ المسلم جعل فى الشرع على نحو لفظ المؤمن اسما لمن يستحق التعظيم والإجلال والمدح .

وعند واصل من المعتزلة أن مرتكب الكبيرة من المخلدين فى النار وإن كانت دركته فوق دركة الكفار، ويقرر القاضى عبد الجبار من المعتزلة فى غير موضع من كتابه " شرح الأصول الخمسة " تخليد مرتكب الكبيرة فى النار أبد الآبدين، ويذهب مع ذلك إلى أن عقابه يكون دون عقاب الكافرين، وأنه لا يكون يائساً من رحمة الله، وأنه يجوز وصفه بالإيمان مقيدا !! (١).

ونلاحظ أن هذا الجواز عند القاضى عبد الجبار لا يعنى التطابق مع مذهب أهل السنة فى الموضوع لأن أهل السنة يجيزون وصفه بالإيمان مقيدا وغير مقيد .

ويستدل القاضى عبد الجبار على تخليد مرتكب الكبيرة فى النار بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ . (١٤ النساء)

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾. (٩٣ النساء).

ويمكن مناقشة المعتزلة فى هذا الاستدلال بأنه لا يستحضر كافة النصوص المتعلقة بالموضوع ليوفق بينها بتفسير بعضها بعضا والوصول بها إلى أن المراد بالخلود طول المكث لا الأبد، كما فعل أهل السنة كما سيأتى فى شرح مذهبهم . .

وإذا كان الخوارج يستدلون بذلك على ما استدل عليه المعتزلة ويزيدون حكمهم بكفر مرتكب الكبيرة على النحو المفصل عند فرقهم المختلفة، فإن المعتزلة لا يخطون هذه الخطوة، ويستدلون على عدم الكفر ذاك بآية اللعان، فى قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ

(١) شرح الأصول الخمسة ص ٦٦٦ وما بعدها

ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾. ٦-٩ النور .

يقول القاضى عبد الجبار: (فإن اللعان فإنما ثبت بين الزوجين، فلو كان القذف كفراً لكان لا بد من أن يخرج أحد الزوجين بفسقه عن الإسلام فتنقطع بينهما عصمة الزوجة فلا يحتاج إلى اللعان، فإنه لم يشرع بين الأجنبيين وإنما يجرى بين الزوجين فيصح بهذه الجملة أن صاحب الكبيرة لا يجوز أن يسمى كافرا ولا يجوز أن يجرى عليه أحكام الكفر) [1].

وأرى أن هذا التعليل إن كان يسوقه المعتزلة للاستدلال على "عدم الكفر" فإنه متهافت لأن اللعان إنما يجرى قبل أن تثبت الجريمة، أى قبل أن يثبت الفسق، فهو ما يزال مجرد دعوى بعد، ولأن التفريق بين الزوجين إنما يقع بمجرد الخروج من الإيمان دون انتظار لوصف الكفر الزائد . وقد قال به المعتزلة كما قال به الخوارج فهم سواء فى ذلك، فما قالوه لا يفيد الخوارج ولا المعتزلة على السواء .

وتذهب الزيدية من الشيعة مذهبها فى تخليد مرتكب الكبيرة فى النار، مخالفة إمامها – من بعده – الذى كان يذهب مذهب أهل السنة .فهو أى زيد رضى الله عنه ـ ذهب إلى أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان أو الإسلام، بل يعذب حينا من الدهر ثم يرد إلى الجنة .

والإمامية من الشيعة:- يسمون مرتكب الكبيرة مسلما (إلا أصحاب البدع [2] فإنهم كفار مرتدون يستتابون وإلا قتلوا ...) .فأين من أنكر الإمامة بينهما؟

ويذهب العبيدية من المرجئة إلى أن ما دون الشرك مغفور لا محالة، وأن العبد إذا مات على توحيده لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات .

ولهم فى ذلك قياس: أنه كما لا ينفع مع الشرك (طاعة) كذلك لا يضر مع الإيمان عمل (معصية) ولا يدخل النار أحد من أهل القبلة .

---

(١) أنظر شرح الأصول الخمسة ص ٦٣٣، ٦٩٨، ٧١٢، ٧٠٢، ٧٠٧، ٧١٤، ٧١٧، ٧٢٠، ٧٢٦

(٢) أنظر أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٥

ويمكن الرد على قياسهم هذا بأنه مع الكفر لا يتصور طاعة، لأن الطاعة بحسب معناها اللغوى البحت إنما تكون كذلك لمن يطيع المطاع، والكافر بعمله لا يطيع فيه أحدا، أو لا يطيع فيه المطاع الذى يرجى ثوابه، وهى بحسب معناها الشرعى لا تكون كذلك إلا بنية التوجه بعمله إلى الله، " إنما الأعمال بالنيات " والكافر لا يتوجه إلى الله بعمله، لأنه غير مؤمن به أصلا، فالقياس قائم على المغالطة، وهو مبتور من أوله .

وذهبت اليونسية من المرجئة إلى أن ترك ما سوى الإيمان من الطاعة لا يضر حقيقة الإيمان، ولكن يبدو أن سقوط العمل عند هؤلاء يبدو سقوطاً مجازياً، بمعنى أنه بعد تمكن الإيمان – وهو معرفة وخضوع ومحبة الله – من القلب لا يتصور معه وقوع المعصية ولا ترك العمل، قال يونس بن عون النميرى زعيم المذهب (من تمكن فى قلبه الخشوع والمحبة له على خلوص ويقين لم يخالفه فى معصية [1])

فإذا وقعت منه المعصية فهى فى هذه الحالة " لا تضر " لأنها تكون هفوة ولا عمد فيها ولا إصرار عليها .

أما المرجئة الحديثة:

الذين يثيرون أغاليط من مثل: التكفير حكم لا يملكه بشر، لأن العقيدة متعلقة بالقلب

ومن مثل: اللاأدرية المتمثلة فى قول بعضهم: أنت لا تملك الحقيقة

ومن مثل: الاعتراض على تكفير النصارى واليهود

ومن مثل: النسبية التاريخية

فهم أكثر انفلاتا وتدليسا وتلبيسا إلى حد يصدق عليهم فيه قول أبى حنيفة رضى الله عنه " من قال لا أعرف الكافر كافرا فهو مثله "

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ١٢٥

obeikandl.com

وللموضوع مزيد بيان فى كلامنا الآتى عن الإلحاد المعاصر.

وقد كان الحسن البصرى رضى الله عنه من أهل السنة – فيما يروى عنه – يذهب إلى أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ولا بكافر مطلق . وأنه يستحق اسم المنافق . لأمرين:

الأول أن الفاسق يستحق الذم واللعن كالمنافق سواء فلا يمتنع إجراء هذا الاسم عليه .

الثانى: أنه بارتكابه الكبيرة دل على أن فى اعتقاده خللا، وأنه أظهر الإسلام دون أن ينطوى عليه قلبه إذ لو كان معتقدا لله تعالى وللثواب والعقاب لكان يكون فى حكم الممنوع من ارتكابه الكبيرة، فمعلوم أن أحدنا إذا قال له غيره: إن فعلت كذا عاقبتك بهذه النيران المؤججة فى هذا البيت – وهو عالم بقدرته عليه وأنه لا يخلف وعده ولا وعيده فإنه يكون كالمدفوع إلى أن لا يفعل ما يهدده وكذلك الأمر هنا [1] . وهذا أشبه بالوعظ منه ببيان الحكم الشرعى

وتكلم الإمام أبو حنيفة فى حكم مرتكب الكبيرة، قال:

(أهل القبلة مؤمنون، لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شئ من الفرائض ...

ومن أصاب الإيمان وضيّع شيئاً من الفرائض كان مؤمناً مذنباً، وكان لله تعالى فيه المشيئة: إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئاً فعلى ذنب عذبه، وإن غفر له فذنبا يغفر[2]).

وهو يقول: (من قتل نفساً بغير حق أو سرق أو قطع الطريق فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، وإنما يعذبهم الله بالإحداث فى النار، ويخرجهم منها بالإيمان [3].

ويقول أبو حنيفة أيضاً: (ولا نكفر مسلماً بذنب من الذنوب، وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة، ولا نقول إن حسناتنا

---

(١) أنظر كتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية ص ٦٢

(٢) المصدر السابق (ص ٣٧).

(٣) الفقه الأبسط (ص ٤٧) .

مقبولة وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة، وما كان من السيئات دون الشرك والكفر لم يتب عنها صاحبها حتى مات مؤمناً فإنه فى مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه بالنار، وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلاً[1]).

وقال: (من قتل نفساً بغير الحق أو سرق أو قطع الطريق ... فهو مؤمن فاسق وليس بكافر، إنما يعذبهم الله بالأحداث بالنار، ويخرجهم منها بالإيمان .)

وقال (لا نكفر أحداً بذنب ولا ننفى أحداً من الإيمان) .

وسفه رأى القائلين بصدور الذنب عن نفس غير مؤمنة بالضرورة، أو فى إيمانها ضعف، يقول: (ومن أين قالت الجهال إذا رأوا من إنسان زلة جزعاً عند مصيبة، أو جبناً من عدو، أو حرصاً على هوى .. هذا من ضعف اليقين؟ إنما قالوا ذلك لجهالتهم بتفسير اليقين). ويقول: (فالمؤمنون من قِبل إيمانهم يصلون ويزكون ويصومون .. وليس من قِبل صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم بالله يؤمنون)[2] .

أما من كان يعيش على أرض الشرك، مقراً بجملة الإسلام، غير عالم بشيء من الفرائض والشرائع، ثم مات على هذه الحال، فإن أبا حنيفة يراه مؤمناً مهما ارتكب من الذنوب والمعاصى[3] .

وقد أشار الإمام - فيما يذكره البياضى - إلى مواضع الإكفار، وترجع جملتها إلى ثلاثة وعشرين موضعاً، فى ستة منها يرجع الإكفار إلى نسبة النقص الصريح إليه تعالى . وفى ستة عشر يرجع الإكفار إلى إنكار ما علم بالضرورة كونه من الدين ..و فى موضع واحد يرجع الإكفار إلى تأويل ما علم قطعاً كونه على ظاهره[4] .

ويلتفت الإمام إلى مشكلة الفرق آنذاك: التنابز بالتكفير:فيقول فيمن يرميه

---

(١) الفقه الأكبر بشرخ المغنيساوى (ص ٢٧ - ٣٠) .

(٢) العالم والمتعلم لأبى حنيفة ص ١٢

(٣) أنظر كتابه العالم والمتعلم ص ١٤، وكتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية فى الإسلام ص ٢٣٦-٢٣٧

(٤) انظر التفصيل: إشارات المرام للبياضى (ص ٥١) .

بالكفر: شهادتى عليه أنه كاذب ولا أسميه كافراً .. ويقول فيمن يبرأ إليه من دينه: إن قال لى هذا لم أعجل، ولكنى أسأله عند ذلك مم تبرأ؟ من دين الله؟ أو تبرأ من الله؟ فأى القولين قاله سميته كافراً مشركاً .. فإن قال لا أبرأ من الله ولا أبرأ من دين الله ولكن أبرأ من دينك لأن دينك هو الكفر بالله، وأبرأ مما تعبد لأنك تعبد الشيطان، فإنى لا أسميه كافرا، لأنه إنما يكذب علىّ .[1] ..

أما الإمام مالك فيروى عنه أنه قال: (لو أن العبد ارتكب الكبائر بعد أن لا يشرك بالله شيئا ثم نجا من هذه الأهواء والبدع والتناول لأصحاب رسول الله ﷺ: لأرجو أن يكون فى أعلى درجات الفردوس)[2].

يقول البغدادى فى كتابه " الفرق بين الفرق ": (وكان علماء التابعين مع أكثر الأمة يقولون إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن . لما فيه من معرفته بالرسل والكتب المنزلة، ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق . ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفى عنه اسم الإيمان والإسلام).

ويقول الإمام الرازى: (صاحب الكبيرة عندنا – أى الأشاعرة – مؤمن مطيع بإيمانه عاص بفسقه)[3].

ومما يصح الاستدلال به على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج بارتكابه لها عن الإيمان أن القرآن وصف بالإيمان مرتكبى بعض الكبائر، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ٩ الحجرات، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ ١٧٨ البقرة .

---

(١) العالم والمتعلم (ص ٢٧) .

(٢) أنظر مناقب الإمام مالك لعيسى بن مسعود بن منصور الزواوى طبع المطبعة الخيرية عام ١٣٢٥ ص ٣٨، وكتابنا نشأة الآراء والمذاهب والفرق الإسلامية ص ٦٤-٦٥

(٣) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين ص ١٧٤- ١٧٥

ومما يدل على أن مرتكب الكبيرة يختلف عن الكافر حكما، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

ولا يصح أن يقال إن هذا مقيد مطلقا بالتوبة، إذ لا يكون بهذا فرق بينه وبين المشرك، فالمشرك إذا انتهى يغفر له: ﴿ لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾.

ولا يصح أن يقال إن الذنب الذى شاء الله مغفرته هو الصغائر، لأن الآية لم تخصص الذنب، بأكثر من كونه (دون الشرك) صغائر أو كبائر، على أن الصغائر مغفورة بلا قيد متى اجتنبت الكبائر ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾.

ومن المهم هنا القول بأن الآية لا تدل على أن غير الشرك من الكفر – كإنكار البعث مثلا – داخل فى حدود الغفران لأن الكفر مهما يكن نوعه، ليس دون الشرك وإن كان غيره، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾[1]. ١٥٠ – ١٥١ سورة النساء

ومما يدل أيضاً على أن مرتكب الكبيرة يختلف عن الكافر حكما ما جاء من استثناء بقوله ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ فى شأن الذين شقوا، والذين سعدوا، يقول تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ١٠٥ – ١٠٨ هود . فالذين شقوا من عصاة المؤمنين حياتهم فى النار مقطوعة من آخرها، وحياتهم فى الجنة منقوصة من أولها .

ومما يدل كذلك على أن مرتكب الكبيرة لا يخلد فى النار ما ورد فى الحديث، فقد روى الشيخان بسندهما عن وصف النبى ﷺ الصراط ومرور الناس عليه وسقوط

---

(١) أنظر المختار من كنوز السنة للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ص ٦٣-٦٤

من يسقط منهم فى النار قوله ﷺ: (فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان يعبد الله فيعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله تعالى على النار أن تأكل مواضع السجود) وأخرج الشيخان أيضاً قوله ﷺ فى الشفاعة (وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً) .

وأخرج الشيخان أيضاً قوله ﷺ: فى الشفاعة: (يا رب، أمتى، أمتى) يقول الله تعالى (انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأخرجه من النار (فإذا انطلق النبى ففعل ثم عاد للسؤال: قال الله له: **(انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبه من خردل من إيمان فأخرجه منها)**. فإذا عاد الثالثة قال: (انطلق فمن كان فى قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها) فإذا عاد الرابعة قال: يا رب ائذن لى فيمن قال لا إله إلا الله. قال تعالى: (ليس ذلك إليك، ولكن وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال: " لا إله إلا الله ") .

ومما يستدل به على أن مرتكب الكبيرة لا يخلد فى النار قوله تعالى " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " ٧-٨ الزلزلة، فلو خلد مرتكب الكبيرة فى النار لما استوفى حظه من الجزاء على مثاقيل الخير التى أداها بمقتضى إسلامه من ناحية، وبمقتضى هذه الآية من ناحية ثانية .

فإذا سأل سائل: وأين جزاء مثاقيل الخير التى أداها الكافر؟ فالرد المنطقى البسيط: ليأخذها ممن أداها له، والرد الشرعى البسيط: لا قيمة لعمل لم يتوجه به فاعله إلى الله، سواء بالنسبة للمؤمن أو للكافر (إنما الأعمال بالنيات) والكافر بمقتضى كفره لم يتوجه إلى الله بعمله .

ومما يصح قوله لبيان الفرق بين مرتكب الكبيرة المسلم أصلا، وبين مرتكبيها من غيرهم – وفقا لنظرية النجاة التى قدمناها فى المدخل: أن مرتكب الكبيرة بمقتضى إسلامه لاجئ إلى الله طالب للنجاة ممن يملكها، سائر فى الطريق التى تُسلِكه إليها،

فهو مهما يرتكب (متحرك داخل الطريق ..) تذهب الحركة المنحرفة به هنا أو هناك، ولكنه على كل الأحوال " داخل الطريق المؤدية "، أما الكافر فقد رفض اللجوء إلى الله مبدئياً، وأعطى ظهره للطريق المؤدية، ولم يطلب النجاة، أو طلبها ممن لا يملكها، فهو مهما يفعل مما ينفعه أو ينفع الناس، متحرك خارج الطريق، قد يحقق نفعاً هنا أو نفعاً هناك، لكنه على كل الأحوال (خارج الطريق)، فكيف يحصل على النجاة من كارثة النار، وهو لم يطلبها، أو لم يطلبها ممن يملكها؟ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ أى لولا توجهكم إليه، والكافر لم يتوجه إليه، فكيف يحصل على مطلبه (النجاة)؟

إن حادث النار يوم القيامة، حادث كونى عام، يتعرض له البشر وغيرهم، ﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾، ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ والله سبحانه وتعالى حذرنا من هذا الحادث، أنذرنا به، وأرشدنا إلى (متجه) النجاة منه، وهو متجه إسلام النفس لله، والكافر أعرض عن هذا المتجه، وولى وجهه عنه ﴿ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ والأمر هنا أشبه بما كان فى حادث الفيضان، أنذر نوح عليه الصلاة السلام الناس به، فمن ركب السفينة كان له النجاة، ومن تولى عنها كيف ينجو من الطوفان؟ إنه خرج بكليته من البقعة الوحيدة التى لا يغرقها الطوفان، خرج بكليته وبإرادته، وغامر بلقاء الطوفان، فلما فاجأه الطوفان، كان الطريق مقطوعاً بينه وبين السفينة واتجه إلى ما كان يظنه بقعة من اليابس خارج السفينة، ولم يدر أن البقعة من اليابس مهما ارتفعت فوق الجبل (الجودي) لا نجاة فيها، لأنها لا تقاوم الطوفان ولا تفلت منه، النجاة الوحيدة فى السفينة .

والطوفان هنا هو النار، والسفينة هى الإيمان، فكيف لمن ولى عن السفينة أن يطلب النجاة من الطوفان، إنه هالك لا محالة بتوليه، هالك لا محالة بفعله، أما مرتكب الكبيرة فهو أشبه براكب السفينة الذى يرتكب المخالفات وهو على ظهرها، إنه يؤدَّب، إنه يجُزى على معصيته، إنه يذوق من النار المحيطة بالسفينة، فإذا هو بعد ذلك لم يتغير موقعة الذى اختاره، ولم يخرج من سفينته التى لجأ إليها، وهذا هو

انتهاء عقابه واستئناف مقامه المكفول له بالإيمان، مقام الفوز بالجنة، والنجاة من النار .

الصلاة خلف كل بر وفاجر:

قال ﷺ " صلوا خلف كل بر وفاجر "، رواه مكحول عن أبى هريرة وأخرجه الدار قطنى وقال: مكحول لم ير أبا هريرة، وفى إسناده معاوية بن صالح متكلم فيه، وقد احتج به مسلم فى صحيحه .

وخرج الدار قطنى أيضاً وأبو داود عن مكحول عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال الرسول ﷺ " الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم برا كان أو فاجرا وإن عمل بالكبائر، والجهاد واجب عليكم مع كل أمير، برا كان أو فاجرا، وإن عمل بالكبائر " .

وفى صحيح البخارى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان يصلى خلف الحجاج بن يوسف الثقفى، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج – كما يقال – ظالماً .

وفى صحيح البخارى أيضاً أن النبى ﷺ قال "يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم". وتفصيل القول فى ذلك: إنما هو من أبواب الفروع[1].

سقوط عقوبة جهنم عن فاعل السيئات من المسلمين

تتلخص عوامل إسقاط العقوبة فى الآخرة – بمشيئة الله – عن فاعل السيئات من المسلمين فى الأمور الأساسية الآتية التى لخصها العلامة ابن أبى العز:

التوبة . تجنب الكبائر . الاستغفار . الحسنات . المصائب الدنيوية . عذاب القبر . دعاء المؤمنين واستغفارهم له فى الحياة وبعد الممات . العمل الذى لا ينقطع بعد موته من علم نافع أو صدقة جارية أو دعاء خالص وفقاً للحديث . ما يهدى إليه من

(١) أنظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٧٤-٢٧٦

ثواب صدقه أو قراءة أو حج . أهوال يوم القيامة وشدائده . مقاصة حسنات غيره بسيئاتهم له . الشفاعة . عفو أرحم الراحمين[1].

فاللهم اجعلنا فى عفوك بما تشاء

دين الله واحد

تعددية الأديان والشرائع

يعتقد المسلم أن الإسلام ليس هو ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فحسب، ولكنه هو الدين عند الله أزلا، وهو ما أنزل على جميع الرسل والأنبياء، قاطبة

وفى هذا يأتى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ ١٩ آل عمران، ويأتى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ٨٥ آل عمران . و يقول تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ١٣ الشورى .

وقد استقصى القرآن الكريم قصص الأنبياء ليسميهم جميعا بالمسلمين، وليسمى دينهم بكلمة الإسلام الصريحة، لا فرق بين أحد منهم وآخر، بدءا من نوح وإبراهيم وإسماعيل ويعقوب، ولوط، ويوسف، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

من مثل ما جاء فى شأن سيدنا إبراهيم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾ .

من مثل ما جاء فى شأن سيدنا موسى عليه السلام وصحبه إذ يقولون ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ١٢٦ الأعراف، وفرعون موسى يقول عند الاحتضار ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ٩٠ يونس

---

(١) أنظر شرحه للعقيدة الطحاوية ص ٢٣٢-٢٣٤

وفى شأن سيدنا سليمان عليه السلام إذ يقول فى خطابه إلى قوم سبأ ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ٣١ النمل، وملكة سبأ إذ تقول ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ٤٤ النمل

وفى شأن سيدنا عيسى عليه السلام وصحبه الحواريين: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ٥٢ آل عمران

بل يصل الاستقصاء القرآنى فى هذا الموضوع إلى دائرة الجن إذ يقولون ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ ١٤ الجن

وفى الحديث الصحيح يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد)

ويقول الإمام الطحاوى (ودين الله فى الأرض وفى السماء واحد)

ويقول ابن القيم فى مدارج السالكين (وقد دل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم لآخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه) ثم يقول (فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل من أحد دينا سواه) .

ويقول العلامة الشيخ محمد عبد الله دراز عن كلمة الإسلام بمعناها القرآنى (إنما هو اسم للدين الذى هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء).

إنه اسم للدين وليس محض وصف مؤول بدليل قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم: ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا ﴾

وليس هذا اعترافا بكون المسيحية أو النصرانية أو اليهودية إسلاما ولكنه يعنى كماهو واضح إنكار نزول دين سماوى غير الإسلام.

و تأتى المشكلة فى ثقافة المسلم المعاصر من استعمال مصطلح تعددية الأديان، بدوافع من زيغ السلطة أومن نزغ السياسة .

لأنه إن كان المراد بهذا المصطلح ذائع الصيت: التسوية بين الإسلام وبين بعض الأديان الأخرى من حيث صحة صدورها عن الله تعالى فهذا مما لا يجوز للمسلم أن يردده دون إكراه .

إن عقيدة المسلم تحول بينه وبين ذلك قطعا، ومن ثم تحول بينه وبين القول بتعددية النجاة يوم القيامة، كما تحول بينه – تبعا لما تقدم – وبين القول بما يسمى الأديان السماوية، لأن وصف إحداها بالسماوية يعنى صدورها عن الله تعالى وليس فى الإسلام غير دين سماوى واحد .

أما إن كان المراد بعبارة تعددية الأديان: واقع العقائد من حيث ما يشمل الدين المنزل من الله والأديان الوضعية بالأصل أو الوضعية بالتحريف، أى ما يشمل جميع الأديان حقها وباطلها مؤمنها وكافرها فالتعبير صحيح، يقول تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾، وفى هذه التعددية يقول ابن القيم (فأديان أهل الأرض ستة، واحد للرحمن، وخمسة للشيطان، فدين الرحمن هو الإسلام، والتى للشيطان: اليهودية والنصرانية، والمجوسية، والصابئة ودين المشركين).

وفى المصادر الإسلامية المعتمدة ليس هناك كلمة واحدة تدل على تنزيل من الله لدين ما من هذه الأديان غير الإسلام، وإنما هى أطلقت كأسماء لأقوام كاليهود تنسب إليهم اليهودية، أو لبلد كالناصرة أو لنصرة الحواريين، أو للناصر أى الناظر إلى الله تنسب إليه النصرانية، وأنبياء الله لا يبلغون من ذلك شيئا غير الإسلام، ولا يبلغون فى كتبهم المنزلة دينا غير الإسلام .

أما كلمة المسيحية فظهرت لأول مرة من جانب الوثنيين الذين أطلقوا هذه التسمية على مجموعة الهيلينستيين الذين أخرجوا من القدس وارتحلوا إلى أنطاكيا وكونوا هناك كنيسة أنطاكيا، وعامة الناس بالمدينة كانوا يميزونهم بهذه التسمية عن الطائفة اليهودية [1]

(١) المسيحية نشأتها وتطورها لشارل جنيبر، ترجمة عبد الحليم محمود ص ٩٠

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦٩ المائدة، فهو من ناحية مسبوق بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ومن ناحية ثانية فقد صرح القرآن الكريم بتقييد هؤلاء جميعا بقيد الإيمان، وبيَّن معنى الإيمان المطلوب منهم – بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم – بقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ ٦٥ النساء، أى: يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إليكم أى بالقرآن الكريم، والإيمان بالقرآن الكريم لا يكون كذلك إلا بجميع ما جاء به... ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾ ١٥٩ الأنعام ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ٨٥-٨٦ البقرة . ومن ذلك بل على رأسه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وإذن فالقول بأن القرآن الكريم يقر بعض الناس على إيمانهم بوحدانية الله دون إيمانهم بالرسول مهما كانت أسماؤهم أو صفاتهم، أهل كتاب أو غيره، قول باطل بدلالة الآيات السابقة .

وبناء عليه فليس صحيحا أن المفسرين جمدوا النصوص المتعلقة بخيرية أهل الكتاب فى التاريخ – ما قبل محمد عليه الصلاة والسلام – وجعلوها نصوصا تاريخية بحتة، لأنهم طبقوها ولا يزالون يطبقونها على كل كتابى يؤمن برسوله ومن سبقه فى زمنه ويؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن سبقه بعد بعثته، ويتخذ من القرآن الكريم لا مصدقا فحسب ولكن مهيمنا أيضا، يقول ابن جريج من مسلمى أهل الكتاب فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾: " القرآن أمين على الكتب

المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل" ويقول ابن عباس "(ومهيمنا) أى حاكما على ما قبله من الكتب" ويقول أيضا "ومهيمنا أى شاهدا" يقول ابن كثير: وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى: فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله: فهو أمين وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله"

وبالرغم من موافقتنا على نقد الموقف التاريخى البحت، فلن يمنعنا ذلك من أن ننبه إلى أن تميز اليهود بشدة العداوة للمسلمين مقارنة بالنصارى: راجع إلى حالة تاريخية نتيجة وضع اليهود بالمدينة فى الوقت الذى لم يكن قد تبلور فيه بعد موقف الشراسة النصرانية التى بدأت بحرب الروم، والتى استمرت حتى اليوم، والتى ذاق فيها المسلمون من النصارى من ألوان العداوة والبغضاء أكثر مما ذاقوا من اليهود، فاليهود ضيعوا الفلسطينيين وسلبوا القدس، أما الدولة النصرانية فضيعت الفلسطينيين والقدس والدولة الإسلامية فى المشرق وفى الأندلس وبقية أوربا، وآسيا و ما تزال تضيع حتى اليوم . وهما سواء فى حكم قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٢٠ البقرة

وأما الاستشهاد الذى يستشهد به بعض الكاتبين فى الموضوع بقوله تعالى عن النصارى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فاستشهاد مبتور، لأن الآية تتحدث عن قسيسين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وفقا لقوله تعالى فى الآية التالية ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ٨٢ -٨٤ المائدة

أمثال هؤلاء هم فقط الذين جاء فيهم قوله تعالى مما استشهدت به الآيات: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ١١٣- ١١٥ آل عمران، هم الذين لا يكتمون الكتاب ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُو۟تُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ ١٨٧ آل عمران، هم الذين يقول فيهم القرآن الكريم فى نفس السياق ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ ١٩٩ آل عمران، ويقول القرآن فى سياق كلامه عن هؤلاء ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ ٥٥ النساء، ومن عداهم ممن لا يؤمن بمحمد بعد ظهوره فليسوا على شيء ويقول القرآن الكريم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ ٦ البينة .

ومن الواضح أيضا أن يكون موقف الإسلام من أهل الكتاب أكثر حزما وتدقيقا بعد بعثة محمد صلى الله عليه وسلم منه قبل ذلك لما هو معروف - ومسلم به فى علم مقارنة الأديان - من ضياع نص التوراة التى أنزلت على موسى عليه السلام و عدم وجود نص الإنجيل الذى أنزل على عيسى، فإذا كان لهم عذر فى اضطرابهم قبل أن يأتى الرسول فليس لهم عذر فيما بعد ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ٤٨ المائدة .

أما مكافأة أهل الكتاب على العمل الصالح فما جاء فيه من ذلك فى القرآن الكريم لا يمكن فهمه بعيدا عن مجموعة الآيات والأحاديث المتعلقة بالموضوع وإلا "وقعنا فى حفرة عميقة من عدم الاتساق"!!، ومن هنا فإن هذه المكافأة لها أربعة أحوال: حالة ما قبل البعثة المحمدية، وحالة بعضهم ممن آمن بمحمد بعد البعثة: فهذان هما اللذان يأتى فيهما حسن الثواب، وهناك حالة من لم يؤمنوا بمحمد – أى بعد البعثة المحمدية – ممن يعملون عملهم للدنيا – ممن يجرى الاستشهاد بهم عادة تبكيتا للمسلمين - فهؤلاء يأخذون مكافأتهم فى الدنيا ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ

ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ ١٥-١٦ هود، ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾ ٢٠ – ٢٤ آل عمران . وهناك حالة من يعملون لغير الله فيأخذون مكافأتهم ممن عملوا له، شأنهم فى ذلك شأن بعض المسلمين أنفسهم وفقا لما جاء فى صحيح مسلم بسنده عن أبى هريرة قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار)

أما التفرقة بين نصارى الشرق ومسيحيى الغرب، فى معاملتهم للمسلمين فمرجعها أن نصارى الشرق يعيشون غالبا فى كنف المسلمين، فلا يتصور أن يعادوا المسلمين كما هو شأن نصارى الغرب، فالمسألة تدخل فيها الجغرافيا كما يدخل التاريخ، وليس فيها شيء من التفرقة الثابتة مطلقا بين الطائفتين .

وأما قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فمن الخطأ فهم النبوءة فيه بأنها تقف عند نصرة الروم على الفرس، ولكنها تتنبأ بذلك ثم تتجاوزه بنبوءة أعظم وهى نصرة المؤمنين – المسلمين على الروم – وذلك فى قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ ﴾ وعندئذ ففرحة المؤمنين بالنصر هى فرحتهم بالنصر على عدوهم الأكبر: الروم، ولقد صدق التاريخ ذلك، وما كانت عداوة الفرس للإسلام التى زالت فى عقدين أو ثلاث، لتقاس بعداوة الروم التى تطرق علينا أبواب مخادعنا حتى اليوم والساعة .

والخلاصة أن لا مجال فى العقيدة الإسلامية للقول بتعددية أديان صحيحة، ولا مجال لإطلاق مصطلح الأديان السماوية الذى لم يعرف قط فى تراثنا الإسلامى، وإنما زرع بيننا فى فترة الغزو الفكرى المعاصر، ولا مجال للقول بتعددية النجاة يوم القيامة، ولكن النجاة لدين واحد لا غير .

هناك أديان نعم، هناك أديان كتابية نعم، هناك رسالات نعم، هناك كتب سماوية نعم، لكن هذا شيء أما القول بتعددية الأديان السماوية فلا . وإذن فوحدة الدين عند الله عقيدة أساسية عند المسلم لغير المسلم أن يعتقد ما يشاء حولها .

وتعدد الأنبياء لم يكن لتعدد الأديان التى جاءت من عند الله، وإنما كان تعدد الأنبياء – ببساطة شديدة – يدور وجودا وعدما مع بقاء الدين الحق بين أيدى الناس، أو اندثاره من بين أيديهم، فالظروف المكانية والزمانية – مع فقدان وسائل الاتصال والحفظ – كان لها فى الماضى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم أثر فى اختفاء الدين الحق (الإسلام) الذى يأتى به نبى من الأنبياء، فعند ما يحدث ذلك يأتى النبى الجديد ليعيد وضع الدين الحق بين الناس مرة أخرى، ويبلغهم رسالة الإسلام التى فرطت فيها أجيال سبقت، أو أرغموا على التفريط فيها، تحت ضغط الظروف الجغرافية والتاريخية، والبشرية، وهكذا حتى توفرت وسائل الاتصال والحفظ فى عصر الرسالة المحمدية وتكفل الله سبحانه بتوفير هذه الوسائل ﴿ إِنَّا

﴿ نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ٩ الحجر، فالاتصال الجغرافى تم بين أرجاء المعمورة كلها، والاتصال بين الأجيال تم بالتواتر والكتابة والطباعة والتسجيل إلخ، وأصبح من المستحيل اندثار الدين، أو نجاح التآمر على اندثاره . ومن هنا زالت الدواعى التى كانت تدعو إلى رسول جديد أو رسالة جديدة أو كتاب جديد، وكان قضاء الله بختم الرسالات بمحمد عليه الصلاة والسلام .

كذلك فإنه لا مجال للقول بتطور الأديان من الشرك إلى التوحيد، ومن الباطل إلى الصحيح، أو أن ديانة التوحيد ظهرت أول ما ظهرت على يد أخناتون - كما يروج لها أصحاب الثقافة الفرعونية الميتة - لأن الدين الصحيح المنزل من عند الله الذى هو الإسلام قد صاحب الإنسان من وقت نزول آدم، ويصاحبه إلى يوم القيامة: دينا توحيديا صحيحا بكل أركانه، وما حصل مما يسمى تطورا ما هو إلا ذلك التدهور الذى يصيب الدين كما يصيب غيره من الأنظمة، الأمر الذى كان يستدعى توالى التصحيح بتوالى الأنبياء وتوالى رسالاتهم التى تعيد الأمر إلى نصابه، إلى الدين الوحيد عند الله ألا وهو الإسلام مع الإضافة أو النسخ فى مجال التشريع .

إن نظرية التطور فى هذا المجال من أخطر المقولات التى تموج بها التيارات الفكرية المعاصرة، وخطرها على العقيدة الإسلامية يأتى من ثلاث جهات، جهة البداية وجهة الوسط وجهة النهاية جميعا .

فمن حيث جهة البداية تقتضى النظرية أن يكون آدم عليه السلام فى درجة منحطة من التفكير والتدين، بينما هو الذى يتحدى القرآن بعلمه علم الملائكة، وهو الذى قام بين يدى ربه يأخذ العلم منه، وهذا مناقض تماما لنظرية التطور.

وهى أى نظرية التطور خطر من جهة الوسط لأنها تقتضى تكذيب القرآن الكريم فيما أسنده إلى جميع الأنبياء على توالى العصور من دعوتهم إلى ديانة واحدة هى ديانة التوحيد ديانة الإسلام .

وأما من جهة النهاية فإن نظرية التطور لا تعترف بما يسمى النهاية ولكنها تقتضى انفتاح المستقبل أمام أديان جديدة، وتقدم جديد، يقتضى عقيدة جديدة

وهكذا، إن افترضنا جدلا أنها تقبل القول برسالات سماوية أصلا . وهذا مناقض تماما لما تقتضيه العقيدة الإسلامية.

أما قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى (مثلى ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه، وترك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من بنائه، إلا موضع لبنة، لا يعيبون سواها فكنت أنا سددت تلك اللبنة)، فهو يؤكد وحدة الدين عند الله، ولا يتمشى مع فكرة التطور، وإنما يشير إلى التمام، والتمام المشار إليه هو للبناء السابق الثابت، الذى يتم نهائيا ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

والحدود الثابتة المعلومة من العقيدة الإسلامية بالضرورة تتلخص إسلاميا فى النقاط العشرة الأساسية التالية:

لفظ الدين بالمعنى الحق المقبول عند الله لا يطلق على غير الإسلام، وإن كان من الممكن إطلاقه بالمعنى العام ليشمل الحق وغيره .

الإسلام هو الدين الوحيد المنزل من الله على جميع الرسل: ابتداء من سيدنا آدم عليه السلام، إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

الإسلام ليس هو التوحيد فحسب، لكنه الإيمان بالله ورسله وما جاء به رسله من غير تفريق بين أحد منهم، ولا بين شيء مما جاء به أحدهم وشيء آخر .

لا إسلام بغير الإيمان بمحمد رسول الله بعد مبعثه ومن لم يفعل ذلك كان اسمه الكافر ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ٣١-٣٢ آل عمران

القرآن والحديث الصحيح هما المصدران الإلهيان الوحيدان الموثقان

ماعدا الإسلام ديانات وضعية بقى فى بعضها بعض من آثار الوحى لا تعرف - بعد بعثة محمد – إلا بالقياس إلى القرآن والحديث الصحيح

القرآن صريح قاطع فى وصف العقائد الأساسية: - الثالوث والصلب والفداء – ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ١٧ المائدة ﴿ لَّقَدْ

كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ٧٣ المائدة ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ ١٧١ – ١٧٢ النساء، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾. ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ٣١ التوبة

وان مصير أصحابها فى الآخرة هو ما يقرره صريح الآيات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ١٥١ النساء ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ ٦ البينة .

الإسلام يسمح بوصف أصحاب هذه الديانات بأنهم أهل كتاب، وهى تسمية فى غاية الدقة ولا يسمح بوصف أديانهم بأنها سماوية .

وفى النهاية فإنه لمن المؤكد (أن الإسلام لا يقبل ولا يقر إلا الإيمان بعقيدته الكاملة) لا فى التوحيد فحسب، وأن أصحاب العقائد الأخرى يحملون نفس الموقف تجاه الإسلام ولا مجال للمساومة والحلول الوسط حول الأمور العقائدية . ونضيف: وبالتأكيد فليس عند المسلم أية حساسية – أو لا ينبغى أن تكون – فى أن يصفه غير المؤمنين بعقيدته بالكفر، فهذا طبيعى ومفهوم.

تعددية الشرائع:

يذهب بعض العلماء إلى إطلاق القول بتعدد الشرائع الربانية مع القول بوحدة الدين الذى هو الإسلام .

ويجب أولا أن نبين هنا أن السند لذلك لم يأت من القرآن .

فالذى جاء فى القرآن الكريم عن تعدد الشرائع إنما كان فى مجال المقارنة بين

شريعة الله وبين شرائع منحرفة وقع البشر فيها، وفقا لأهوائهم المقدورة لهم بالجعل الإلهى. يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ٤٨ المائدة، والجعل الوارد فى هذه الآية هو كالجعل القدرى المذكور فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ ٢٥ الأنعام، وكالجعل الوارد فى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا ﴾ ١١٢ الأنعام.

وتأتى كلمة شريعة فى القرآن الكريم مرة أخرى فى مقام المقارنة بين شريعة الله وشريعة الشركاء ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ ٢١ الشورى

ثم تأتى كلمة الشريعة مرة أخرى لتبين أنها شريعة واحدة للأنبياء جميعا ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ ١٣ الشورى .

ويروى ابن كثير ما ذهب إليه بعض الأئمة من أن المخاطبين بقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾: هذه الأمة، أى أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعناه قصر وحدة الشريعة على أمة محمد، لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجا، أى هو لكم كلكم تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب فى قوله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ أى جعلناه، يعنى القرآن شرعة ومنهاجا، أى سبيلا إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا. هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، ولكن ابن كثير يضعفه ويعترض عليه بقوله: الصحيح القول بأنه – أى القرآن – خطاب للبشرية كلها - ويدل على ذلك قوله تعالى بعده ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ وهم أمة واحدة. اهـ: تفسير ابن كثير .

والذى نراه أن اعتراض ابن كثير غير وارد، فقد يكون قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ تعليقا على الاختلاف المفهوم من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ وهو اختلاف سببه الخروج على شريعة الله أصلا .

وعلى كل حال فالذى أراه أننا لو أردنا بالشريعة اصطلاحا "الأمور العملية" فهذا لا يرجع سنده إلى القرآن الكريم . فبالرجوع إلى القرآن الكريم لا نجد ذلك المعنى من التعدد الذى يخص قوما دون قوم: فالأمر بالصلاة والصوم والزكاة والوفاء فى الكيل والميزان وطاعة الوالدين وتحريم القتل والزنا.. إلخ مما جاءت الشريعة به صريحة فى القرآن الكريم بالنسبة للأمم السابقة والأنبياء السابقين .

وفى تاريخ الطبرى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق .

وفى تفسيره: نجد ما يدل على التعبير بالشرائع داخل ما جاء به النبى الواحد:

فعن عبيد وكانت له صحبة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الإيمان ثلثمائة وثلاثون شريعة من وافى بشريعة منهن دخل الجنة، رواه الطبرانى فى الكبير .

وفى المعجم الأوسط للطبرانى بسنده عن المغيرة بن عبد الرحمن ابن عبيد عن أبيه عن جده وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة) من وافى بواحدة منها دخل الجنة .

وروى بسنده عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الإسلام ثلاث مائة شريعة وثلاثة عشر شريعة ليس منها شريعة يلقى الله بها صاحبها إلا وهو يدخل بها الجنة) .

وفى شعب الإيمان للبيهقى بسنده عن أبى سعيد الخدرى يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بين يدى الله عز وجل لوحا فى ثلاثمائة وخمس عشرة شريعة يقول الرحمن وعزتى وجلالى لا يأتينى عبد من عبادى ما لم يشرك فيه واحدة منهن إلا أدخلته الجنة) .

وفى سنن أبى داود: بسنده عن سعيد بن جبير قال سألت ابن عباس فقال: وأما

التى فى النساء ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم الآية قال: (الرجل إذا عرف شرائع الإسلام ثم قتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم لا توبة له) فذكرت هذا لمجاهد فقال إلا من ندم .

وفى سنن ابن ماجة: بسنده عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال لرسول الله: (إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأنبئنى منها بشيء أتشبث به؟ قال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل).

وفى الحاكم فى المستدرك بسنده عن عبد الله بن بسر أن أعرابيا قال لرسول الله (إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأنبئنى بشيء أتشبث به فقال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وفى مسند الحارث[1]: باب فى شرائع الإسلام: حدثنا يحيى بن أبى بكير ثنا أبو جعفر أخبرنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فارقها والله عنه راض، قال أنس وذلك دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، يقول الله عز وجل: ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ خلعوا الأنداد وعبادتها وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم .

ومع ذلك فلابد من الإقرار باختلاف صور التكاليف بين أمة وأخرى ورسالة وأخرى، ولكن هذا أشبه بالاختلاف فى صور التكاليف فى داخل الأمة الواحدة وبين يدى نبى واحد، فهو هو النسخ فى الشريعة الواحدة المنزلة.

فإذا صح أن نسمى هذا النسخ انتقالا من شريعة إلى شريعة جاز على هذا الأساس أن نسمى النسخ ما بين خط الشريعة الممتد بين الأنبياء جميعا تعددا فى الشرائع . ولكن هذا لا يفيد المطلوب عند من يطلقون شعار تعددية الشرائع إذا

---

(١) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: تاليف الحارث بن أبى أسامة الحافظ نور الدين الهيثمى، تحقيق د: حسين احمد صالح الباكرى، ط ١٩٩٢

قصدوا من وراء ذلك استقلال كل أمة بشريعتها المنزلة دون اعتبار لما يكون قد حصل فيها من نسخ نتيجة توارد الرسالات كشريعة ممتدة، فى مجرى التاريخ[1]

وقد ورد فيما يدل على ارتباط مفهوم اختلاف الشريعة بالنسخ: ما جاء فى المعتصر من المختصر لأبى المحاسن يوسف بن موسى الحنفى: فى السحور أنه روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر، كان الشرع فى أول الإسلام أن الصائم إذا قام من الليل يحرم عليه ما يحرم على الصائم إلى خروجهم من صوم الغد، كما كان شريعةَ أهل الكتاب، ثم نسخه الله بما نسخه به من كتابه فجاز لنا أن نأكل فى لياليه .

---

(١) ففى الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس:

بعد الإشارة فى مقدمته للأنبياء المرسلين قال: فمن مرسل بنسخ شريعة قد كانت وإثبات أخرى قد كتبت ومن مرسل بتثبيت شريعة من كان قبله ومن مرسل بأمر قد علم الله عز وجل أنه الى وقت بعينه ثم ينسخه بما هو خير للعباد فى العاجل وأنفع لهم فى الأجل أو بما هو مثله ليمتحنوا ويثابوا كما قال الله عز وجل ما ننسخ من ءاية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها وقال عز وجل وإذا بدلنا ءاية مكان ءاية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون

ثم قال: تكلم العلماء من الصحابة والتابعين فى الناسخ والمنسوخ ثم اختلف المتأخرون فيه فمنهم من جرى على سنن المتقدمين فوافق ومنهم من خالف ذلك فاجتنب، فمن المتأخرين من قال ليس فى كتاب الله عز وجل ناسخ ولا منسوخ وكابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين، ومنهم من قال النسخ يكون فى الأخبار والأمر والنهى، قال أبو جعفر وهذا القول عظيم جدا يؤول فى الكفر لأن قائلا لو قال قام فلان ثم قال لم يقم فقال نسخته لكان كاذبا

وقد غلط بعض المتأخرين فقال إنما الكذب فيما مضى فأما فى المستقبل فهو خلف، وفى كتاب الله عز وجل غير ما قال قال الله عز وجل فقالوا (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) ثم قال جل ثناؤه (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون)

• وقال آخرون بل الناسخ والمنسوخ إلى الإمام ينسخ ما شاء وهذا القول أعظم من ذلك لأن النسخ لم يكن إلى النبى إلا بالوحى من الله عز وجل إما بقرآن مثله على قول قوم، وإما بوحى من غير القرآن فلما ارتفع هذان بموت النبى ارتفع النسخ

وقال قوم لا يكون النسخ فى الأخبار إلا فيما كان فيه حكم فإذا كان فيه حكم جاز فيه النسخ وفى الأمر والنهى

وقال قوم النسخ فى الأمر والنهى خاصة

وقول سادس: عليه أئمة العلماء وهو أن النسخ إنما يكون فى المتعبدات لأن الله جل وعز له أن يتعبد خلقه بما شاء وإلى أى وقت شاء ثم يتعبدهم بغير ذلك فيكون النسخ فى الأمر والنهى وما كان فى معناهما وهذا يمر بك مشروحا فى مواضعه إذا ذكرناه . اهـ

و فيما يدل على شمول كلمة الشريعة لمعنى العقيدة " التوحيد": ما جاء فى كتاب الزهد لأبى بكر أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الشيبانى ت ٢٨٧ هـ ط ١٤٠٨ عن زهد أيوب عليه السلام بسنده عن وهب ابن منبه سئل ما كان شريعة أيوب عليه السلام؟ قال التوحيد وإصلاح ذات البين، وإذا أراد أحدهم حاجة إلى الله عز وجل خر ساجدا ثم طلب حاجته .

وفى اتصال الشريعة بين الأنبياء كان شرع من قبلنا شرعا لنا ما لم يأت نسخ أو استثناء - ففى شرح معانى الآثار للطحاوى: أن حكمه – صلى الله عليه وسلم أن يكون على شريعة النبى الذى كان قبله حتى يحدث له شريعة تنسخ ما تقدمها قال الله عز وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾.

وقد روى هذا المذهب عن مجاهد عن بن سخبرة قال: كنا قعودا مع على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ننتظر جنازة، فمر بجنازة أخرى، فقمنا، فقال: ما هذا القيام؟ فقلت ما تأتون به يا أصحاب محمد رسول الله قال أبو موسى قال رسول الله إذا رأيتم جنازة مسلم أو يهودى أو نصرانى فقوموا فإنكم لستم لها تقومون إنما تقومون لمن معها من الملائكة. فقال على رضى الله تعالى عنه: إنما صنع ذلك رسول الله مرة واحدة كان يتشبه بأهل الكتاب فى الشيء فإذا نهى عنه تركه، فأخبر على رضى الله تعالى عنه فى هذا الحديث أن رسول الله إنما كان قام مرة فى بدء أمره على التشبه منه بأهل الكتاب، وعلى الاقتداء بمن كان قبله من الأنبياء حتى أحدث الله تعالى له خلاف ذلك وهو القعود .

وفى صحيح ابن حبان: لما كان المصرح عن نبينا فى خبر ابن عباس حيث قال "أمنى جبريل عند البيت مرتين" فذكر الخبر، وقال فى آخره: هذا وقتك ووقت الأنبياء قبلك، كان فى هذا الخبر البيان الواضح أن بعض شرائعنا قد تتفق ببعض شرائع من قبلنا من الأمم

وأخيرا فإذا كنا نقطع إسلاميا بوحدة الدين السماوى، وخطأ ما كتب عن تعدد الأديان المنزلة، وزيغ ما كتب عن تعددية النجاة، فإننا نرفض أيضا القول بتعددية الشريعة السماوية بمعنى استقلالية كل أمة بشريعة منزلة

أما إذا اعتبرنا القول بالتعددية بديلا عن القول بالنسخ الحاصل بين نبى وآخر فهو اعتبار وارد نظريا، لكنه غير المقصود عادة عند من يستعملون وصف "التعددية" أو مصطلح النسخ . .

وذلك كله إنما يأتى على بساط تحرير العقيدة، دون أدنى مساس بشرعية حسن المعاملة مع أهل الكتاب، وغيرهم ممن تقوم بينهم وبين المسلمين ذمة الإسلام وعقد الوطنية . إن حسن معاملة المسلمين لأهل الكتاب فى الدنيا - حسب شريعتهم الإسلامية - موضوع لا يجوز التشكيك فيه، كما أنه حفظا لسلامته لا يجوز لأهل السياسة أن يخلطوا بينه وبين العقائد.

ويكفى أن نقرر هنا أن حسن معاملتهم تأتى بضمانة الجالس فوق عرشه فى قلب كل مسلم: يقول رسول الله:صلى الله عليه وسلم: (من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته .) وهذا الحديث وإن كان قد ذكر العجلونى فى كشف الخفاء - رواية عن أحمد - أنه لا أصل له لكنه استدرك على ذلك بقوله: (لكن ناقش الحافظ ابن حجر فى ثبوت ذلك عن أحمد، وقال: إن له أصلا) فقد رواه أبو داود بسنده عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ (من ظلم معاهدا أو تنقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس منه، فأنا خصمه يوم القيامة)

وذكر البيهقى مثله فى سننه عن ثلاثين من أبناء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آبائهم بلفظ (ألا من ظلم معاهدا أو تنقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة - وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صدره - ألا ومن قتل معاهدا له ذمة الله ورسوله حرم الله عليه ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا)

وأما المشهور من قوله صلى الله عليه وسلم عن الذمة (لهم مالنا وعليهم ما علينا) فقد أشار السندى - ت ١١٣٨ - إلى ثبوته [1].

---

(١) فى حاشيته على النسائى بتحقيق الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة فى شرحه لقوله صلى الله عليه وسلم ﷺ تتكافأ دماؤهم ﷺ:، أنظر ج ٨ ص ٢٠ ط ٢ .

وإذا كانت تلك ضمانة الرسول فهى إذن ضمانة الضمانات، يوم تتزأبق ضمانات الدساتير و العولمة وحقوق الإنسان ويثبت قلب المسلم على إيمانه بالإسلام .

مفهوم الإلحاد

إذا أردنا عبارة شديدة الاختصار لمفهوم الإلحاد قلنا هو: إنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

وإذا أردنا شرحا لهذه العبارة قلنا: إن المعلوم بالضرورة بوجه عام فى الدين أو فى غيره، هو المعلوم الذى لا يحتاج فى إثباته إلى دليل. ومثاله فى الرياضيات: قولك: إن الواحد نصف الاثنين، فإذا قلت ذلك لصاحبك لم يقل لك: هات الدليل، ومثاله فى التربية الوطنية قولك: القاهرة عاصمة جمهورية مصر العربية، ومثاله فى السياسة الدولية: قولك: إن الاتحاد السوفيتى عضو فى مجلس الآمن.

وإذن فالمعلوم من الدين بالضرورة هو كل أمر لا نحتاج فى إثبات وجوده فى الدين إلى دليل، كقولك: إن الإسلام يدعو إلى الإيمان بالقرآن كتابا منزلا، وإلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، أو كقولك: إن كلمة " قل " هى أول كلمة فى سورة الإخلاص. وأن الوقوف بعرفة ركن فى أعمال الحج.

وإذن فالإلحاد هو إنكار أمر موجود فى الدين لا نحتاج فى إثبات وجوده فيه إلى دليل، كبر هذا الأمر كالقول بوحدانية الله، أو صغر كالقول بغسل الوجه فى الوضوء، وذلك لأن إنكار أمر من هذه الأمور يصعد إلى مرتبه الكفر لأنه يعنى تكذيب الله أو تكذيب رسوله، وهذا أقصى درجات الكفر .

ميادين الإلحاد المعاصر

فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة من جدلية مادية وبراجماتية ووضعية ووجودية، دعوات صريحة إلى الإلحاد .

وحول المنهج العلمى تنسج أوهام من الإلحاد باسم إنكار كل ما لا يخضع للتجربة، وباسم التطور الذاتى، وحتمية قوانين الطبيعة، وعدم قابلية المادة للفناء .. الخ

وفى التنظيم الاجتماعى سحابات من الإلحاد: حيث تقوم بعض الدعاوى فى هذا المجال على إنكار الدين واعتباره طورا متخلفا من أطوار التقدم الاجتماعى أو إنكار دوره – على الأقل – فى عملية التنظيم الاجتماعى، وقطع علاقته بالسياسة أو علاقته بالأخلاق .

وفى قضايا التشريع نزوع إلى الإلحاد: حيث يهاجم الدين فى نظرته إلى الرق وإلى تعدد الزوجات وإلى "قوامة الرجل على المرأة " وزيادة نصيبه على نصيبها فى الميراث وفى عقوباته التى يقررها فى جرائم السرقة والزنا والقتل .

وفى تدوين التاريخ تيارات من الإلحاد: حيث يقدم الدين على أنه نتيجة لصراع الطبقات ومظهر من مظاهر التطور الاقتصادى: يصنف فيه الصحابة إلى يمين ويسار، ويقدم فيه رسول الله على أنه رسول لقيمة من قيم التطور الاجتماعى كالحرية أو غيرها من القيم الإنسانية، وتقدم الأديان بعامة على أنها السبب الأصيل فيما حدث من الحروب على مر التاريخ.

وفى أساليب التربية نزوع إلى الإلحاد، فالفرائض الدينية تخضع للحرية الفردية والحرية قيمة يعمل بها إزاء عدد من السلطات منها سلطة الدين، والتجربة أسلوب لتكوين الشخصية يمارس حتى بالنسبة للمحرمات. والترفيه عن النفس وتفريغ الكبت الجنسى بالاختلاط الخليع أصل من أصول التوجيه التربوى .

وفى فنون الأدب إشارات إلى الإلحاد: حيث توجه الاحتجاجات الصارخة ضد القدر وتصور بعض الشخصيات الروائية وهى تبحث عن الله بحثا مضنيا فاشلاً، وحيث تقدم شخصيات رجال الدين والشخصيات العادية المتدينة فى صورة ممجوجة تثير التهكم والسخرية، وتقدم الأديان بعامة على أنها فشلت فى حل مشاكل الإنسان .

وفى بعض البحوث الإسلامية ذاتها تطلعات إلى الإلحاد، إذ يوصف النص القرآنى بالبشرية وينكر إمكانية التوصل إلى ما فيه من ألوهية النص طالما – ودائما – يتم تقديمه من خلال الفهم البشرى، وينكر دور السنة فى التشريع، ويقدم القصص

القرآنى على أنه نوع من الفن الروائى لا يعبر عن الواقع التاريخى، وتدرس القراءات على أنها نوع من الاجتهاد البشرى، وحيث تقوم الدعوة إلى إغفال النصوص المتعلقة بالجزيئات والاكتفاء بالمبادئ العامة التى يرضى عنها العقل ولا تختص بدين من الأديان .

وفى تكييف العلاقة بين الإسلام والأديان الكتابية تورط فى الإلحاد حيث يسوى بينهما جميعا فى الأيمان بالله • ويسوى بين الولى هنا والقديس هناك .

وفى ميدان العادات والأخلاق يحاول البعض فى وسائل الاتصال الثقافى والجماهيرى أن يلفتوا النظر إلى مصدر للأخلاق الحميدة - كالصدق والوفاء والإتقان فى غير الإسلام كالديانات المصرية القديمة، متناسين ما فى تلك الديانات من وثنية ممقوته .

وفى تكييف العلاقة بين السياسة والدين بقولهم: لاسياسة فى الدين ولا دين فى السياسة إلى الحد الذى يقع بهم فى بديل لا يقل عن الوقوع فى: تسييس الكفر و تكفير السياسة.

هذه وتلك تيارات فكرية: تدعى غالبا الاستناد إلى العلم أو إلى المنهج العلمى .

أما عن الأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك التيارات فكثيراً ما نجد الذين تتمثل فيهم تلك التيارات خالصه بحيث يأخذون حكمها خالصا .

لكن الصعوبة تكون فى كثيرين نجد فيهم خليطا متناقضا من الإيمان والإلحاد الذى تمثله واحدة من تلك التيارات .

وتقل الصعوبة فيمن يكون من هؤلاء عاميا أو شبه عامى أو نصف مثقف، حيث ينبغى أن نرجح فى شأنه جانب الإسلام، ونعذره فى جهله ببعض ما فى هذه التيارات من تناقض مع الإسلام، وذلك إلى أن نبين له هذا التناقض .

ولكن المدهش حقا أن نجد فى بعض المستويات العليا من المثقفين جمعا بين ظاهرة من ظواهر الإيمان وبين فكرة من التيارات الإلحادية تلك أو غيرها .

وعلى سبيل المثال: قد نجد من هؤلاء من يصلى ويقرأ القرآن فى غير موقف من مواقف الرياء أو المداهنة، لكنه فى مناقشة جادة يصرح بأن حديث القرآن عن الجنة ما هو إلا تعبير عما رآه محمد صلى الله عليه وسلم فى صباه من روضات الشام .

وآخر يصلى كذلك ويصرح بان كثرة حديث القرآن عن موسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا تعبير عن حالة نفسية سيطرت على محمد صلى الله عليه وسلم إزاء موسى !

وآخر يصلى أيضا ويصرح بأن الحضارة الإسلامية محكوم عليها بالفشل فى العصر الراهن لأنها حبيسة الكلمة " وبعبارة أخرى لأنها مقيدة بالقرآن "..... .

هذه نماذج غريبة حقا، لأن أداءهم للصلاة ينتسب للإسلام ، أما أفكارهم تلك فهى الحاد محض؟ فكيف جمع هؤلاء بين الأمرين المتناقضين؟ وأى هذين الأمرين هو الذى يعبر عن حقيقتهم الداخلية؟

إننا نجزم بأن هؤلاء يجمعون فى ضمائرهم الممزقة بين النقائض، وانهم ضحية عصر البلبلة الثقافية التى يمر بها المجتمع الإسلامى. ونرجئ الحكم تفصيلا إلى ما بعد وضع ضوابط الإلحاد المقررة شرعا .

ضوابط الإلحاد:

إننا إذ نتعرض لبيان ضوابط الإلحاد التى تحدد لنا بعض الصور العملية أو التطبيقية لمفهومه الذى ذكرناه نود أن نحذر بادئ ذى بدء من التوسع فى الاتهام بالكفر .

لقد كان من أشد الأمور إثارة للأسى والأسف ما وجدناه فى تاريخ الفكر الدينى فى الحضارة الإسلامية من نزعة ملحة عارمة نحو تبادل الاتهام بالكفر [1]

---

(١) - الكفر لغة الستر، وانما سمى جاحد ربه والمشرك به كافرين لاتهما سترا على أنفسهما نعم الله تعالى، وسترا طرق معرفته على الاغمار،و العرب تقول: كفرت المتاع فى الوعاء أى سترته فيه، وسمى الليل كافرا لأنه يستر كل شئ بظلمته، قال الشاعر: (فى ليلة كفر النجوم غمامها) وسميت الكفارة كذلك لانها تغطى الاثم وتستره وسمى الحارث كافرا لأنه يستر البذور فى الأرض.

يقول الخياط من المعتزلة: ما علمنا فرقه من أهل الملة سلمت من الاتهام بالكفر: هذه الخوارج يكفر بعضها بعضا، وهذه الروافض يكفر بعضها بعضا، وهذه المرجئة يكفر بعضها بعضا، وهذه أصناف المشبهة يكفر بعضها بعضا، وهذه المجبرة فرق مختلفة وبعضها يكفر بعضها .... وهذه النوابت فرق مختلفة فى القرآن وبعضها يكفر بعضا .

والإمام الرازى يحكى قولا للعلماء يقضى بكفر المجسمة: "لما أنهم بإنكارهم وجود موجود لا يشار إليه قد أنكروا ذات الله".

وينقل البغدادى أن الشافعى أشار إلى بطلان صلاة من صلى خلف من يقول بخلق القرآن ونفى الرؤية .

وأن مالكا قال فى المعتزلة: زنادقة لا يستتابون بل يقتلون .

واذا كان أبو حنيفة قد قرر أنه لا يكفر أحدا بذنب ولا يتهم بالكفر من يرميه به، وإنما يتهمه بالكذب، إلا انه يضعنا أمام مبدأ دقيق حيث يقرر أن "من قال لا أعرف الكافر كافرا فهو مثله". ولكن التدقيق فى معنى عبارته يبعدنا عن مجال التنابز بالكفر إذا فهمنا المقصود من قوله "... الكافر ..." أنه من يظهر كفره ظهورا بينا قاطعا .

وترجع هذه الموجات المتلاحقة المتراكبة من التنابز بالكفر إلى أسباب لم تأت فى منهج الإسلام كما جاء به الرسول ﷺ وإنما جاءت من تغلب النزعة الدنيوية أو الشخصية على هذه الموجات .

وقد نجد فى النزعة الدنيوية: أسبابا اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية [1] .

وقد نجد فى النزعة الشخصية: اتخاذ منهج يجعل "النظرية " مقياسا للدين . فيحشره فيها وهو يتأبى عليها، بدلا من أن يجعل الدين مقياسا للنظرية إن كان

---

(١) - انظر كتابنا (عوامل وأهداف نشاة علم الكلام فى الاسلام)

هناك حاجة للنظرية. وقد كان على هؤلاء وأولئك أن يحاربوا نزعاتهم وأن يعتصموا منها بتحذير الفكر الدينى تحذيرا صارما من تبادل الاتهام بالكفر، إذ يجعل الخطر ماثلا فوق رأس المدعى والمتهم جميعا، ففى الصحيحين قوله صلى الله علية وسلم:

"إذا كفر الرجل أخاه - أو قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما "

وقوله " لا يرمى رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك " .

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال لا اله ألا الله، لا نكفره بذنب ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل. والإيمان بالأقدار". أخرجه أبو داود باب "الغزو فى أئمة الجور " من كتاب الجهاد .

يقول الدكتور دراز:

"إذا كان عدم تكفير المسلم معدودا من أصل الأيمان لزم أن يكون تكفيره كفرا . وبهذا نطقت أحاديث الصحيحين "[1].

ولست تجد واحة وسط هذا الهجير المهلك إلا فى ظل شجرة الكتاب والسنة.

إذ تجعل المسلم يحاسب نفسه حسابا قاسيا عسيرا قبل أن يوجه اتهاما بالكفر، إلا أن تقوم أمامه الأدلة على ذلك - لا من النظرية، ولكن من الكتاب والسنة - دلالة قطعية .

ويحصر الإمام البياضى مواضع الإكفار كما يبينها الإمام أبو حنيفة فى ثلاثة مواضع:

نسبة النقص الصريح إلى الله تعالى .

وإنكار ما علم من الدين بالضرورة .

وتأويل ما علم قطعا كونه على ظاهره .

---

(١) المختار من السنة ص ٣٢٣.

وهذه الأمور الثلاثة لا تخرج عن أوسطها يقول الأمام الرازى:

"الكفر عبارة عن إنكار ما علم بالضرورة مجيء الرسول به، فعلى هذا لا نكفر أحدا من أهل القبلة، لأن كونهم منكرين لما جاء به الرسول غير معلوم ضرورة، بل نظرا ٠" (١)

وأهل القبلة هم الذين أسلموا على النحو الذى قبله رسول الله صلى الله علية وسلم فى إعلان الشهادتين، وأصله ما روى عن رسول الله صلى الله عيه وسلم قال " من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا" (٢).

ومن التفصيل لهذا الأجمال ٠٠٠ والذى نراه لا يخرج عنه، ما جاء فى العقائد العضدية بشروحها على النحو التالى:

لا نكفر أحدا من آهل القبلة إلا إذا ارتكب واحدا من الأمور الآتية:

١ - نفى الصانع القادر المختار العليم .

علما بأن الاختيار الذى أثبته الفلاسفة ليس اختيارا عندنا، والاختيار عندنا ما يصح معه الفعل والترك فلا يغنى وصف القادر عنه، إذ القادر قد يضطر إلى الفعل فيفعله بقدرته وليس مختارا، كذلك علم الله الذى تقول به الفلاسفة، لا يتعلق بالجزئيات وهذا غير ما جاء فى العقيدة الإسلامية

٢ - الشرك .

(أ) إما فى وجوب الوجود كالقائلين بالنور والظلمة .

(ب) وإما فى الخالقية كالقائلين بأن فاعل الخير النور، وفاعل الشر الظلمة .

لكن لا يصح تكفير المعتزلة لقولهم بخلق العبد أفعال نفسه الاختيارية، لأن

---

(١) محصل ص ١٧٥ ٠

(٢) انظر شرح الطحلوية لاين أبى العزص ٢١٩ ٠

العبد ووسائله مخلوق لله ... وقد سئل أبو القاسم الأنصارى وهو من أفاضل تلامذة إمام الحرمين عن تكفيرهم فقال:

لا يجوز تكفيرهم لأنهم نزهوه عما يشبه الظلم والقبح وما لا يليق بالحكمة، وسئل عن أهل الجبر فقال: لا يجوز تكفيرهم لأنهم عظموه حتى لا يكون لغيره قدرة وتأثر وإيجاد .

(جـ) وإما فى المعبودية كعبدة الأصنام والكواكب والنار والطبيعة والبشر .

٣- وإنكار النبوة: كالبراهمة وأشباههم

٤- وإنكار ما علم بالضرورة مجئ محمد صلى الله عليه وسلم به: كمن ينكر ركنا من الأركان الخمسة للإسلام، آو ينكر البعث الجسمانى .

٥- أو إنكار أمر مجمع عليه قطعا ٠ كمن ينكر كون الصلوات المفروضة خمسا، آو ينكر عدد ركعات كل صلاة منها، أو ينكر كون كل صلاة منها تؤدى بقيام وركوع وسجود وجلوس، على النحو المعروف

٦- أو استحلال المحرمات بشروط ثلاثة:

(أ) أن يحصل الإجماع على تحريمها.

(ب) أن تكون حرمتها من ضروريات الدين: بحيث يستند الإجماع فيها على دليل قطعى. ويشتهر ذلك.

(جـ) أن يكون الشخص على علم بما تقدم .

وإنه لمن علامات الكفر الدالة على شئ مما تقدم:

السجود للصنم، أو للشمس من غير إكراه

واحتقار المصحف، وأهانه الكعبة من غير إكراه أيضا

وإكبار زعماء الكفر بما يرفعهم فوق منصب النبوة ... من غير إكراه كذلك

وما جرى مجرى ذلك من علامات الكفر وان لم يكن فى نفسه كفرا..

obeikandl.com

فمن فعل شيئا من ذلك ولم يضامه عقد القلب على الكفر أجرينا عليه حكم أهل الكفر، وان لم نعلم كفره باطنا .

وعلى هذا الأساس فهناك جماعات **نحكم عليها بالابتداع** فى الدين ولا نحكم عليها بالكفر .

١ - كالقائلين بخلق القرآن بتأول .

٢ - والقادحين فى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يكفرهم، وأما بما يوجب تكفيرهم فهم يكفرون

٣- والقائلين بأن الله سبحانه وتعالى جسم بلا كيف، وأما المصرحون بالجسمية المثبتون للوازمها من غير تستر(بالبلكفة) فهم يكفرون .

٤- ومن قال إنى أرى الله تعالى فى الدنيا وأكلمه شفاها، فللعلماء فيه آراء: والأصح أن يناقش: فإذا صرح بأنه يراه جسما تثبت له لوازم الأجسام من غير تستر بـ " بلا كيف "... وانه يراه رؤية حقيقية فهو كافر.

وإذا صرح بأنه .. بناء على دعوى المكالمة .. ينزل منصب النبوة فهو كافر .

وإذا تستر بـ " بلا كيف " وأنها رؤية غير حقيقية، وانه لا منصب نبوة فى هذه المكالمة، فلا نحكم بكفره، ويدخل فى حكم الابتداع فى الدين . " وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار "....

والأصل فيه أن فى تكفير المسلم خطرا عظميا .

قال الشيخ تقى الدين رحمه الله:

وهى ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين ومن المنسوبين إلى أهل السنة وأهل الحديث . ثم قال: والحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة إلا بإنكار متواتر من الشريعة على صاحبها أفضل الصلاة . فانه حينئذ يكون مكذبا للشرع.

وعبر بعض أصحاب الأصول عن هذا بما معناه: من أنكر طريق إثبات الشرع:

كمن أنكر ورود مسألة ما فى الكتاب، أو فى السنة أو فى الإجماع، لم يكفر حتى يعرف، أما من أنكرها بعد الاعتراف بورودها فى طريق الشرع، فقد كفر [1] .

درجات من الكفر لا تخرج من الملة:

يقول صلى الله عليه وسلم " سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر " متفق عليه

وقال صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " متفق عليه . وقال صلى الله صلى عليه وسلم " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب واذا وعد أخلف، واذا عاهد غدر، واذا خاصم فجر " متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم " لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن "

وقال صلى الله عليه وسلم " بين المسلم والكافر ترك الصلاة " رواه مسلم .

وقال " من أتى كاهنا فصدقه أو أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد".

وقال " من حلف بغير الله فقد كفر " رواه الحاكم، وقال " ثنتان فى أمتى هما بهم كفر، الطعن فى الانساب والنياحة على الميت "٠

وفى تفسير ذلك كله ذهب أهل السنة باتفاق إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الذنوب لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، إذ لو كان يكفر فى مثل هذه الذنوب كفرا ينقل عن الملة لكان حكمه القتل مرتدا فلا يقبل فى القاتل عفو ولى: ولا فى الزانى حد بالجلد، ولا فى السارق قطع ليد، وهلم جرا .. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، وهم أمام هذه الأحاديث وما يماثلها طائفتان:

---

(١) -انظر لذلك شرح الجلال الداونى على العقائد العضدية، وحواشيها وأصول الدين للبغدادى . ج٢ ص ٢٨ وما بعدها ٠ بتصرف.

طائفة تقول بأن الإيمان تصديق وإقراروعمل، يزيد وينقص، فهؤلاء يقولون فيمن فيهم هذه الأحاديث وأمثالها: إن كفرهم عملى لا اعتقادى فلا يخرج من الملة .

وطائفة تقول بأن الإيمان تصديق لا يزيد ولا ينقص فهؤلاء يقولون فيمن جاءت فيهم هذه الأحاديث وأمثالها: إن كفرهم مجازى غير حقيقى[1].

يقول ابن أبى العز شارح الطحاوية: " تجتمع فى المؤمن ولاية الله من وجه وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان .

وقال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر " فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصى من شعب الكفر، وإن كان رأس الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التصديق "

وإذن فهى كما قلنا درجات من الكفر لا تخرج من الملة

والأجدر أن يقال:

مرتكب هذه الأمور إما أن يرتكبها مستحلا لها فقد أنكر معلوما من الدين بالضرورة فيكون ما فعله كفرا صراحا.

وإما أن يرتكبها مقرا بحرمتها، فكفره باعتباره المآل، إن أصر على ارتكاب هذه الكبائر، وداوم عليها، فان الآثام تتكاثر على قلب العبد مثل الحصير: عودا عودا، حتى يسود، فيختم عليه، والرسول باعتبار منصبه فى الدعوة والتربية يعالج نفوس البشر ويلفت أنظارهم إلى ما يؤولون إليه .

بواعث الإلحاد:

هناك بواعث كثيرة للإلحاد .

ربما نقول إن الباعث إليه يتصل برغبة الإنسان فى الانكباب على شهواته حيث يجد فى الدين رادعا له عن ذلك.

---

(١) - انظر شرح الطحاوية ص ٢٢٥- ٢٢٧ .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة فى الوصول إلى موضع السلطة فى شعب يمثل فيه الدين عنصرا قويا من عناصر المقاومة لهذه الرغبة .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة فى التخلص من بعض المؤسسات الدينية كالكنيسة أو ما يشابهها .

وربما نقول إن الباعث إليه يتصل بالرغبة فى زعامة فكرية جديدة يحول الدين الصحيح دون ظهورها.

هذه البواعث كلها قائمة، وقد يبدو لبعض الباحثين بواعث أخرى أكثر تنوعا وأدق تفصيلا .. ولكن الباعث الأساسى فى رأيى الذى ينبغى إظهاره فى هذا المقام يتضح لنا من النظر فى جوهر الدين .

وليس من المبالغة فى شئ أن نقول إن جوهر الدين هو التسليم لله، وبعبارة أخرى " الاتباع " لله .

وبعبارة أكثر وضوحا نقول: إن منشأ الدين يأتى كجواب على شعور الإنسان بجهله إزاء طبيعة الوجود وبدايته وغايته، وموقع الإنسان فى هذا الوجود، وكجواب على تطلع الإنسان لإزاحة هذا الجهل

وهنا يأتى الدين: يتلقى فيه الإنسان الجواب على تساؤله وتطلعه، ويتبع الإنسان فيه ما يتلقاه عن الوحى .

إن الإنسان بقصوره العقلى يجهل أصول المشكلات التى يواجهها:

مشكلة الوجود بدايته ونهايته وغايته

مشكلة المعرفة: إمكانها، وطبيعتها وأدواتها

مشكلة القيم: الحق والباطل والخير والشر، والنفع والضر والشقاء والسعادة

وهو مع هذا الجهل يتطلع فى شوق عارم إلى معرفة الحقيقة التى يجهلها ٠

وعند هذه النقطة يفترق الحال بين المؤمن المتدين بدين الله، وبين الملحد = (المتدين – رغم أنفه – بدين وضعى)

فالمتدين بدين الله يتلقى المعرفة والتوجيه من الله مسلما به، متبعا له .

والملحد لا يرضى بهذا التلقى، والاتباع، وإنما يبتدع المعرفة والتوجيه، ويحاول أن يصل إليها بنفسه - مع قصوره - أو أن يصل إليها من غير طريق الله .

وخلاصة القول فى بواعث الإيمان بالله: إنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، واتباع الحل الذى يأتى من الوحى الصحيح .

وفى المقابل فإن خلاصة القول فى بواعث الإلحاد: أنها شعور بالجهل إزاء المشاكل الكبرى، وتطلع إلى حلها، وابتداع الحل من مصدر غير الوحى الصحيح .

وإذن فمركز الدائرة فى التفرقة بين الإيمان بالله ورسوله وبين الإلحاد هو عنصر الاتباع لله ورسوله نجده فى جانب الإيمان، وعنصر الابتداع والغرور والاستقلال الكاذب نجده فى جانب الإلحاد.

أهداف الإلحاد:

من الناحية السلبية تتلخص أهداف الإلحاد فى أمرين:

١ - إنكار الإيمان بالله سبحانه وتعالى .

٢ - إنكار الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم .

أما من الناحية الإيجابية فتتلخص أهدافه فى:

نصب أديان وضعية مستمدة من الإنسان لا من الوحى. وهذا ما كشف عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)

وقوله تعالى:(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) .

وتتوافر لهذه الأديان الوضعية (الإلحادية) الخصائص الرئيسية التى للدين بصفة عامة، والتى أنكر الإلحاد الدين من أجلها، وهذا يعنى أن الإلحاد المعاصر - وهو يهاجم الدين لم يفعل إلا أن استبدل دينا بدين .

استبدل بالدين الصادر من الوحى (من الله الحق) دينا صادرا من الإنسان .

وهذا فى حد ذاته كاف فى نقض الإلحاد المعاصر، لأن فيه فضحا للكذب والدجل الذى ينطوى عليه موقفه من إنكار الدين

منهج للرد على الإلحاد المعاصر

فى نظرة استقرائية أكثر شمولا وجدنا الإلحاد المعاصر يقوم فى مجموعه على ادعاء الاستناد إلى العلم التجريبى والفلسفة العلمية، وينطلق من أربع قواعد:

إنكار الغيبيات

الزعم بكفاية القوانين الطبيعية بديلا عن القول بوجود الله

الزعم بكفاية العلم فى مجال المعرفة

الزعم بكفاية العلم فى مجال القيم

وقد تعرضنا لإسقاط هذه القواعد وما تقوم عليه فى كتابنا بعنوان "الفكر المعاصر فى ضوء العقيدة الإسلامية" الذى خصصناه لسد ثغرة "علم الكلام المعاصر فى جانبه الدفاعى"

تم والحمد له رب العالمين

والصلاة والسلام على رسوله الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين.

obeikandi.com